خواطر

(ESSAIS)

ميشال شيحا

خـــواطـــر

(١٩٤٦-١٩٤٨)

(ESSAIS)

عرّبها
جميل جبر
دكتور في الآداب

دار النهار للنشر ومؤسسة شيحا

© **دار النهار للنشر**، بيروت
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى، حزيران ١٩٩٧

ص ب ٢٢٦-١١، بيروت، لبنان
فاكس ٩٦١-١-٧٣٨١٥٩

ISBN 2-84289-023-X

المحتويات

١١ قصيد عارض بمثابة مقدّمة
١٣ مصير الملوك
١٥ إحياء ذكرى
١٧ قصور في إنكلترة
١٩ طيب رومة
٢١ كلمات ضائعة
٢٣ نهاية أنصاف الآلهة
٢٥ حالم سريع التصديق
٢٧ المأساة الآسيوية في أوروبة
٢٩ نداء السيّد ليون بلوم إلى العمل
٣١ قبل انتخاب رئيس الجمهورية الفرنسية
٣٣ خيار الغرب
٣٥ موقع الكرسي الرسولي
٣٧ الفوضى التي لا نراها
٣٩ كلمات ضائعة (٢)
٤١ معاهدات السلم المزعومة
٤٣ في سنّ ماتوشاليم
٤٥ كرنڤال (المرفع)
٤٧ ينبغي أن نتذكّر
٤٩ طريق الهند
٥١ مدى حيويّ
٥٣ أدواء هذا الزمن
٥٥ تأميمات
٥٧ نهاية بروسية
٥٩ سياسة إنكلترة العامّة
٦١ الحزب الاشتراكي الفرنسيّ
٦٣ بعد ثلاثين سنة
٦٥ حسب الأنبياء
٦٧ الملكية والديمقراطية
٦٩ الحقيقة التي تنقذ
٧١ قيامة
٧٣ حول خطب الجنرال ديغول
٧٥ حول خطابين

٧٨ التناقض الذي يقتل
٨٠ أميركة في الشرق
٨٢ شمولية وديمقراطية
٨٤ حرب طرواده لن تقع
٨٦ العودة من موسكو
٨٨ اليابان المهزومة
٩٠ لغة الاخلاص للوطن
٩٢ من بناة الكاتدرائيات إلى علاوات الإنتاج
٩٤ تقصير العقل والقلب
٩٦ الإضرابات في فرنسة
٩٨ حدّثني حديث الحبّ
١٠٠ كلمات ضائعة (٣)
١٠٢ بين الڤاتيكان ومصر
١٠٤ الحرّية العزيزة
١٠٦ تأمّل في الصباح
١٠٨ في اليونان
١١٠ نثر إندونيسيّ
١١٢ حول مدالية ورجاء
١١٤ خطاب المستر أتلي
١١٦ مسيرة العالم الجبّارة
١١٨ من فوق بحر المانش
١٢٠ ثمن النصر
١٢٢ التفسير الكلاسّيكي
١٢٤ قصيد رعويّ
١٢٦ يقظة الكومنترن
١٢٨ افتتاح المدارس وبرامج مدرسيّة
١٣٠ على هامش قصّة جنّ
١٣٢ قبضات ممدودة وقلوب منغلقة
١٣٤ الأيّام التي نعيشها
١٣٦ أمثولة السيّد ستافورد كريبس
١٣٨ الخطب والوقائع
١٤٠ العالم في جنون
١٤٢ ضرر المسارّات
١٤٤ حول ألمانية
١٤٦ لأجل زواج ملكيّ
١٤٨ البحث عن السعادة
١٥٠ صلاة للميلاد
١٥٢ مشاريع للعام الجديد
١٥٤ أمثولة غاندي
١٥٦ انتصار الروح
١٥٨ مذاهب وسياسات
١٦٠ قدر غاندي
١٦٢ ثلوج
١٦٤ صوت القدر
١٦٦ بدائع التطهير
١٦٨ العنف والإيمان
١٧٠ دفاعاً عن الروحانيّات
١٧٢ توجيهات ومثائل
١٧٤ نهاية مؤثّرة
١٧٦ ربيع
١٧٨ القاضي الصالح
١٨٠ الحبّ والموت
١٨٢ هللوليا، التسبيح لله

١٨٤ بحث عن السعادة (٢)
١٨٦ الحديقة تحت المطر
١٨٨ سياسة على قياس العالم
١٩٠ الى صديق غيّبه الموت
١٩٢ حول بعض أفنان خزامى
١٩٤ لكي يكون للحياة معنى
١٩٦ لكي ترتفع السياسة
١٩٨ الصوم والفرح
٢٠٠ حول الحرّية
٢٠٢ كلام حول العمل
٢٠٤ فنّ شعريّ لرجال الأعمال
٢٠٦ موسيقى
٢٠٨ في الريف
٢١٠ وضع فرنسة
٢١٢ فوق الجبل
٢١٤ صُوَر
٢١٦ خوف مشروع
٢١٨ تذكار الموتى
٢٢٠ موت الساموراي
٢٢٢ رجوع

قصيد عارض بمثابة مقدّمة

نأخذ شكل الثمرة الناضجة، الشجرة في أقصى نموّها، لكن هل ثمّة أقرب الى المواكب البطوليّة وبوادر الحبّ وجمال الخطوط وينبوع الدموع؟

حين تنتشر الفكرة فينا توقظ قلباً جديداً، فإذا الخلق يتفجّر والعقل يتنبّه، وتتحسّس الأبديّة، وهي غياب الزمن.

ما معنى أن ننضج ونشيخ حين الربيع يزهو في الأفق وصوتُنا يناديه، هذا الأمير الصامت الذي يصنعُ الحياة ويُعيد صنعها.

ها وراء أعوامنا المتوسّطة نفحة أبعد تهبّ على رئاتنا ولا تنضب.

هل ننشني حين النفس تسمو؟ حين رسوم الغد تنتظم وترقص! حين النصرُ المجنّح يبرز، بلا وهَن، ممّا هو شفاف فينا؟

نورٌ، حياةٌ، حرارة الظلّ عينه، عوالمُ معروفة أو نستشفها، يا له من اكتمال ينفخ شراييننا وهي أقلّ ليونة في جسد يتمرّد، لأن له هذا العدد من السنين ويريدُ بعد الآن أن تقاس خطاه.

ما من فتوّة تحت السماء أسرع من تلك التي لا تغادرنا، فتوّة الماس في الصخرة أو الياقوت المُتّقد يجري فيه دم لا يقوى أي شيء على تبريده.

هكذا، النهار والليل، والحلم والغناء والظمأ اللامحدود الى ماء صاف، وتلك الرغبة بامتلاك المبدأ التي لا يُسكّنها شيء، كلّها تُحرّك فينا قلبا أشدّ حرارة منه حين كنّا في عامنا العشرين.

مصير الملوك

١٤ آيّار ١٩٤٦

«دعونا لمجد الله نستقرّ على الأرض
لنروي حكايات حزينة عن موت الآلهة»
(شكسبير، «ريكاردوس الثاني»)

إنّ مصير الملوك مطروحٌ في بلدان عدّة: اليونان، إيطالية، يوغوسلافية، إسبانية... أمّا النمسة القديمة، وهي أرض أمبراطوريّة، فقد ماتت مع الأمبراطور.

جورج، همبرت، پيير، أوتو، خوان، أحفادُ هملت كلّهم أمراء، مصيرُهم رهن التصويت أو حدد لزمن طويل في المنفى والانتظار. فأوروبة، جنوباً، تتحمّس وتهتزّ إمّا لهم وإمّا عليهم. فكما في البلدان الحُرجيّة نواطير يسهرون على الأشجار العتيقة، فيها كذلك حطّابون يقطعون هذه الأشجار.

حيث أن الأسرة المالكة هي صورة عن أُسر شعب، وغلبة التقليد على القدر، وصلة طبيعيّة في الزمن، فإن جماهير، بلا ذاكرة، تُبغضها وتدينها. ولكن أيّ ملك، في أيّامنا، سيكون مُقلقاً أكثر من الإنسان الذي يصل إلى السلطة بفعل القوّة والعدد؟

الأسرة المالكة هي كالمباني العامّة، كالأنهر والجبال، تخصّ تُراث أمة.

وهي إذا كانت قديمة حقّاً وملكيّة، لا تُسيء قطّ إلى الجدارة، بل تلجم الطمع والحسد. ولا بدّ لها، طبعاً، في هذا السياق، أن تتميّز بحضارة رفيعة المستوى.

في جنوب أوروبة يطرح مصير الملوك على النقاش أو يُطردون. أما في الشمال، فنرى أنّ النُظم السياسيّة الأكثر تقدُّماً لا تتردّد في قبول هذه المؤسّسة وهذا الرمز. ذاك شأن لندن ولاهاي وبروكسل وكوبنهاغن وأوسلو وستوكهولم. ذلك أن بلدان الشمال تؤيّد النظام الملكيّ بينما اللاتين والآخرون يلعنونه ويرفضونه. وهذا الفرق بين الشمال والجنوب والتناقض في الاختيار، والاختلاف في الأهواء ألا يدلّ كلّها على أن الشمال إذ يتطور اجتماعياً يزداد تمسّكاً بالملكية، بمعنى الأسرة، فيما بالجنوب، تُواجَه الملكيّة بالفوضى؟

يبدو أنّ النظام الملكيّ المُعاصر يُحفظ بالبرد ولا تختاره المناخات المعتدلة الاّ بجهد المنطق. أمّا البلدان الحارّة التي يُخيفها الاستبداد، فطبيعيّ أن يبدو هذا النظام خطراً عليها.

بيد أن المفارَقة تبقى كما هي، إذ البلدان التي تتعلّق بمليكها هي تلك التي لا تتهدّدها الفوضى.

أمّا سائر البلدان التي قد يناسبها النظام الملكيّ، فهي لا ترغب فيه لأنها تخشى الطاغية.

لا نقول إن النظام الملكيّ يصلح لكلّ البلدان فنرتكب خطأ بليغاً، إذ لا يجوز حتى التفكير به في ما خصّ بعض الدول وذلك، بكلّ بساطة، لأنّها وُلدت وكبُرت بدونه. انما يمكن طرحُ الناموس التالي: **سيستمرّ النظام الملكيّ، على أفضل وجه وكنعمة، في البلد الذي يشعر فيه كلّ مواطن أنه ملك.** ففي مثل هذه الحالة لا يعود ثمّة مجال للتحاسد. ولكن التكالب على المساواة لا يُنشئ هذا النوع من المواطنين، بل ينشئه سموّ الخلق والنفس.

إحياء ذكرى

٩ حزيران ١٩٤٦

كان بودّنا أن لا نتكلّم عن هذه الذكرى الا بحماس. لكنّ الحقيقة ضدّ الأسطورة. فالحدث المتناهي العظمة الذي احيينا، أمسِ، ذكراه يصطدم بالتشكّك والكآبة.

قلنا عنه «انتصار ساموتراس»[1]، العام الماضي، أي الرائعة المبتورة، لكنّنا حسبناها أقلّ منها جراحاً وشللاً.

منذ حين كتب اليّ، من إنكلترة، صديق ثاقبُ النظر، جذّاب الأسلوب، قال: «ثمة ما يحزن في استعراض النصر هذا. فبقدر ما يُمكننا أن نلاحظ نرى أن لا أحد أراده، لا الفرق العسكريّة التي ستسير ارتالاً، ولا جمهور المدنيّين الذين سيشاهدونه. فما من أحد يشعر الآن أنه حقّق انتصاراً باهراً.

لا نحسبنّ هذا الرجل مواطناً ضعيف النفس تنقصه الشجاعة، فهو راجح العقل وقد ارتدى بفخر البزّة العسكريّة طوال الحرب.

إنّ نصر السنة الماضية، رغم عظمته، انتهى إلى عماوة الأشياء المجهولة المصير، وهو لا يبدو أقلّ مأساوية من الهزيمة. اذ عدا الأضرار المادّية قد أحدث لدى المنتصرين، من خلال الثُلم الاجتماعية والخلقيّة والعاطفيّة،

١. «Victoire de Samothrace»: تحفة فنّية تذكّر بالنصر.

دماراً لا حدّ له.

لا نريدُ أن نبخس النصر حقّه لأن هذا يؤلمنا أكثر مما يؤلم أيّ شخص آخر. فعلامة النصر ٧ هي ماثلة أمام أعيننا باسطة جناحيها تواكبها أناشيد الحرب وأهازيج الفوز. ولكن هيهات أن تصمد الأوهام بوجه الحقيقة!

ما فائدةُ الكلام ومحاولة الاقتناع بأن مجرّد القضاء على ثلاثة أمبراطوريات قد وفّر للدنيا حظوظ سعادة أفضل؟

لكنّ من المؤلم أن يُصاب الناس في رجائهم غداة يوم كهذا. وذلك نأباه ونرغب، بالعكس، أن نعزّز الإيمان بغير الأوهام، أن نفتح العيون على الواقع، أن نفسّر أخيراً أن الشعور بالنصر أمرٌ شخصيّ وعميق. ولا يُمكن للأسهم الناريّة أن تحلّ محلّه ولا الاستعراضات الحربيّة.

ثمّة نصر واحد يبقى له شأنه وهو أن لا نقع في التجربة لكي ننجو من الشّرير.

قصور في إنكلترة

١١ حزيران ١٩٤٦

القصور في إنكلترة، هذه المنازل التاريخيّة الجميلة التي يقدّمها أصحابها إلى الأمّة، أصبحت لا تُحصى. وتتولّى إدارتها لجنةٌ وطنيّة. وتتصرّف بها المؤسسات العلمية والمدرسية والاجتماعية والانسانية.

في انكلترة، كما في فرنسة، وفي سائر بلدان أوروبة يندر أولئك الذين يستطيعون الاحتفاظ، لمجرد لذّة خاصّة، ببيوت الماضي الفخيمة والاعتناء بمتنزّه فسيح وحدائق غنّاء ويستمرّون في نمط الحياة الذي تقتضيه هذه الأشياء الجميلة.

لقد حرّمت تضحيات الحرب كلّ هذا فقضت على ماض بكامله.

لكن ليس أولئك الذين لا يستطيعون الاحتفاظ بقصورهم هم وحدهم يتخلّون عنها، بل أن هذه الحركة اتخذت في انكلترة منحى عاماً يتجلّى في سباق على السخاء. فالهبات الخليقة بالأمراء تتضاعف بحيثُ أن الشعب الانكليزيّ سيكون هو أول أصحاب القصور. ولعلّنا هكذا نشهد عصرَ فروسيّة جديداً.

أليس ذا أفضل من أن تُحرق القُصور وباسم المساواة تُهدم مدنيّة رائعة بحجّة أن وسائلها ليست في متناول الجميع؟

إن ميزة عصرنا، في أكثر البلدان تقدّماً، تظهر في رقيّ الشعب السائر على خطى نُخبه، سواء كانت هذه النُخَب من أمراء الأرض أم من أمراء

الروح.

في هذا السبيل عرف الإقطاعيّون الإنكليز أن يتصرّفوا كأصحاب أملاك جديرين بهذا الاسم فبسّطوا حياتهم لتبسيط المعضلة.

ليت هذا النهج يعمّ كلّ بلد!

في أماكن أخرى يعملون، بدون رويّة، على إيقاظ الغرائز. ولكن حيثما تُتّخذ الثورة الوسيلة الدائمة والهدف فإنها تأتي ضدّ الشعب وتقضي على حظوظه في التقدّم.

إننا نتخّيل باعتزاز قصورَ انكلترة هذه، وقد تألّقت وسط الحدائق أو الأشجار الكبيرة، موضوعة في خدمة جامعة، أو متحف، أو معهد علميّ أو نقابة أو مؤسّسة محترمة أخرى، وهي قصور سُكنت دائماً بكرامة ونُبل، لتساهم في سموّ شعب لا يَعجبُ كيف أن انساناً مُستحقاً يُصبح لورداً بدون أن يُذلّ أيّاً كان حوله.

علينا أن نعلّم الشعب حُبّ الجمال. ويا لها من طريقة حَسنة لجعله يألف العظمة ويرفع مستوى أحلامه!

طيب رومة

٢٧ آب ١٩٤٦

لا بدّ من ستّ ساعات طيران من باريس إلى رومة، عن طريق إيستر. والطيّارات، في هذا الوقت، هي أميركية وعسكريّة.

ها نحن نسير على طريق أپيان وأعيننا ما تزال ممتلئة من روائع قصر التويلري ومتحف اللوڤر. وفي رومة أول الأثار التذكاريّة التي التقيناها هو تمثال القديس فرنسيس الأسيزي من البرونز، هذا الفقير الواعظ، ثمّ كاتدرائيّة سان جان دو لاتران بجلالها، هذه الكنيسة، أمّ كنائس المدينة الخالدة، بل كنائس العالم.

إن ثُلَم الحرب النادرة التي أصابت رومة كانت في ضواحيها: منطقة سان لوران، خارج الأسوار، وبعيداً عنها في جبال الپين في فراسكاتي، مثلاً، في الفُسحة المُحرّجة، أضرار جسيمة. وما عاد نبيذ فراسكاتي يكفي لكي يثير النسيان.

رغم الألعاب والأغاني لمناسبة العيد الشعبيّ الكبير في ١٥ آب، شعرنا أن إيطالية تحتاج إلى بلاسم غير النبيذ والملاهي الريفيّة.

لقد خرجت إيطالية من حلم مفعم بالألم، لكنّ الإيطاليين قلّما يظهرون خيبتهم، بل يحسّون حيالها بشيء من الحياء. وهم، بلطفهم المعهود، يفيضون حياة، يبتسمون، يهرّجون، يغنّون.

بعد جهد هائل في محاولة استعادة حياة الماضي الرومانيّ راحت إيطالية

تتشبّه بسيّدة جليلة أتعبتها حياة اجتماعيّة طويلة، عاصفة، مشرقة، وتنتظر من الرجال مُجاملة قلّما حظيت بها. بيد أن المرء في رومة يشعر دائماً أن عظمتها تسحقه، فكثرة الآثار والأبنية التذكاريّة، بصفاء خطوطها، هي من الروعة بحيث تحفظ للمدينة طابعاً أمبراطورياً.

الأميركيّون في رومة هم كسكّان كوكب آخر. «فالجمهوريّة» الإيطاليّة بحدّ ذاتها ليس لها، بالنسبة اليهم، إلاّ القيمة التي كانت للأمراء، في البندقيّة أو في جنوى، القيمة التي عفى عليها الزمن. ذلك أن نزعتهم الديمقراطيّة لا تجعلهم ينسجمون معها تماماً.

فوق كلّ هذا إن في رومة البابا والڤاتيكان، الممثّل المنظور «للملكوت» غير المنظور، وعاصمة المسيحيّة وحضارتها. وهذه القيم، في خراب العالم، ازدادت عظمة. وبما أن كلّ شيء تساوى، بانهياره، حولها، فقد أصبحت تتراءى من مجال أبعد. وهي أكثر من ذي قبل «نور» هذا العالم، ولا يجد الإنسان إلاّ بحرارتها مسوّغات حياة.

حفظنا من رومة، مع الشعور بالاعتزاز، ذكريات لا تُنسى، ونعود منها، إلى بلادنا، بثوابت يقينيّة وبوعود لا تُقدّر. فالكنيسة، وقد استقرّت بعناية إلهيّة في رومة، تحفظ نوعاً من حنين إلى الأماكن التي وُلدت فيها. ولبنان بالنسبة اليها مركز مميّز ممتلئ بطيوب العهد القديم والعهد الجديد.

حين يدورُ الكلام حول لبنان لا تنفكّ عبارات الحبّ والتبريك تتردّد على شفتيّ الأب الأقدس...

إن آخر الصور التي ارتسمت في أذهاننا عن رومة هي، قبل تمثال القديسة تيريزا الذي نحته برنيني وهو على خطوتين من الفندق الذي نزلنا فيه، وقد أغمي عليها من شدّة الحبّ، تمثال موسى لـ ميكلنجلو فوق جانيكول[1] في كنيسة القدّيس بطرس ذي الروابط. ويا لهما من رائعتين تجسّدان البطولة والشغف، رائعتين لامتناهيتين...

١. Janicule: احدى تلال رومة السبع.

كلمات ضائعة

٨ تشرين الأوّل ١٩٤٦

لا ننفكّ نقوم بالحركات عينها طوال الحياة. والفصول والأيّام تجدُنا على ذات الدروب. ونغادرُ دوماً شيئاً ما قد لا نعود نلقاه قطّ.

مع أن رؤوسنا مملوءة بالمشاريع والرغبات. لكنّنا، وقد أتعبنا ما نعمل وما نحن فيه، نحلم بهروب عبثاً نرتجيه.

هكذا يتقدّم بنا المصير فَي وعي عاتم أو مشرق للنور وللظلام. وهكذا نشيخ أذلاّء أو مُذلّين نُنتزع عن الأشياء أو نتجرّد منها.

وإن قمنا نبحثُ عن الزمن الضائع وإن عثرنا على كلّ لحظات حياتنا، واحدة تلو أخرى، فقد يتصاعد منها حزن مبهم.

حين نسير على الطريق الرئيسة، في عذوبة تشرين الأول الصباحيّة، نفكّر بهذا كما فكّرنا بالأمس به، ومنذ حين، كما فكّرنا به منذ زمن بعيد في مواجهة التعقيدات المتزايدة في كلّ شيء.

لقد تجاوز الإنسان علمه. ومفهوم السعادة ضاع وقتيّاً. فعلماء الاجتماع أفسدوا الطبيعة. لم يفهموا خطورة الإحصاء ولا فظاعة الترقيم غير المحدّد للبشر. يا لها من رتابة مرهقة!

أمّا قليلُ الأهواء، قليل الاستقلال الحقيقيّ الباقي لنا، فيضحّى به في سبيل نظريّة اقتصادية[1].

١. La loi d'airain: نظرية مآلها «لا يمكن ان يتجاوز اجر العامل الحدّ الأدنى للمعيشة».

حتى نمط الحياة استبدّت به مذاهب العصر . ففيما حركاتنا المألوفة هي على صورة التكرار والصبر ، ثمّة بوادر عنف خفيّة تأخذ بخناقنا كلّما نزلنا ، بعد عطلة في الجبل ، إلى المدينة فيساورنا قلق من سوء يولّده أداء المُصلحين عديمي الإنسانية .

ما من مبدأ اجتماعيّ بعدُ يصلح للعالم كلّه . واعتقاد بعضهم الخاطئ بوجوده يُثير عواطفنا وأفكارنا التي تعبّر عنها طبيعياً وبهدوء إثارة تنقلب بها إلى حدّ الفوضى وحتى الموت .

نهاية أنصاف الآلهة

١٧ تشرين الأوّل ١٩٤٦

يُذكّر موت الزعماء النازيين المخزيّ بحكاية أستير. هي ساعة تعذيب آمان وظفر مردوشه! «**وسيبلغ علوّ مشنقته خمسين ذراعاً**»[١].

سيذاع، جوراً، أن الألمان الآريين الذين حُكم عليهم قد هلكوا بسبب الساميّين، وأن انتهاكاتهم للحقّ الطبيعي وللحقّ المكتوب، مهما بلغت فظاعتها، ما كانت لتقودهم الى الموت لولا اضطهادهم لليهود.

تعترينا الرجفة، فعلاً، إذ نردّد الرقم الذي أعلن عن اليهود الذين قضوا نحبهم في سجون ألمانية. ولا نفهم كيف وجد مثل هذا العدد من الجلاّدين ليميتوا، بكل برودة أعصاب، هذا الحشد من الرجال والنساء والأطفال.

مضى منظّروا العرق، وعلى رأسهم روزنبرغ، في جدليّتهم اللامعقولة حتى النهاية، فقست قلوبهم حتى خلت من كلّ رحمة وكلّ حبّ. وقولبوا، بالنتيجة، شعبهم على صورتهم.

أوّل انحراف لدى غورنغ والآخرين ما بدا في جعلهم العرق الجرمانيّ فوق كل عرق وحسب، بل في جعلهم إيّاه فوق كل **قانون**، فارتضوا، انطلاقاً من هذا الامتياز، كلّ المظالم لكي يُحلّوا، بكل وسيلة، حكم ألمانية

١. آمان: وزير فارسيّ أراد القضاء على اليهود فأنقذتهم الملكة أستير، كما جاء في حكاية أستير التوراتيّة.

محلّ ملكوت الله.

منذ ثورة الملائكة لم يشهد في أيّ مكان مثل هذه الغطرسة.

فالتبرير الذي اعتمدوه في القتل لمصلحة الدولة العليا جعل مستحيلاً الدفاع عن وضع أعوان هتلر القانونيّ في نورمبرغ.

لقد أصبح موت هؤلاء ضئيل الأهمّيّة بالنسبة لعدد الموتى الكبير وحيال فظاعة المعتقلات وتدنيس قدسيّة الأجساد البشريّة التي مُثّل بها لحاجات صناعيّة فمكّنت من صنع صابون من الجثث المذوّبة وعاكسات نور للمصابيح من جلود بشريّة مسلوخة.

كيف نوفّق بين هذه الأشياء الراعبة وبين ألمانية الفنّانة، موسيقيّة التراث الغربيّ، ألمانية المتاحف والجمالات الطبيعيّة؟

في مأساة نورمبرغ وخاتمتها دليل على التلازم فينا بين البهيمة والعبقريّ، وبين البطل بمعنى ما.

ما سيحفظه التاريخ من هذا كلّه غير خاف على أحد. ولا بدّ للمقارنة مع عصور البشريّة السحيقة أن تمرّ في أذهان الفلاسفة، أولئك الذين يعرفون أن المدنيّة لا تستمرّ إن لم تصدر دوماً عن الروح.

فنظريّة العرق والدم، كسائر النظريّات المادّية التي تناهضها وتظلّ بعدها، لن تؤدّي إلاّ إلى العنف والعبوديّة والموت.

حالم سريع التصديق

١٧ تشرين الثاني ١٩٤٦

حين تحدّث السيد هيو دالتون، وزير الماليّة البريطانيّ (وقد حلّ محلّ السيد ألكسندر وزير الدفاع الوطنيّ المريض)، في مجلس العموم وأيّد الخدمة العسكريّة الإلزاميّة، أعلن، بلهجة كئيبة، تذكّر بأجواء شكسبير ونبرة هملت، ما يلي:

«وحده حالم سريع التصديق يسعه أن ينفي أنّنا نعيش اليوم في عالم محفوف بالمخاطر»

في ضباب تشرين الثاني اللندنيّ لا بدّ أن تكون هذه الكلمات قد أثارت رعشة في أعماق الكثيرين. ذلك أن من قال هذا القول ليس المسؤول عن الجيوش بل رجل المال الذي يُفترض فيه، بحكم مهامّه، أن يكون أشدّ تفاؤلاً.

ليس قصدنا الآن تضخيم التأثير على مشاعر المواطنين ومعاصريهم وإثارة مزيد من المخاوف في النفوس، لكنّ الوقائع (وحالة الأمم) هي من الخطورة بحيث تُرغمنا على الاضطراب. إذ لا نستطيع أن نتصوّر انكلترة إلاّ محرجة لكي تنشئ خدمة عسكريّة إلزاميّة في زمن السلم. ذلك أن الإنكليز (والآخرين) ضاقوا ذرعاً بهذه الأجواء، لا سيّما وأن القنابل ما زالت تدوّي في ذاكرتهم وما زالت تدوّخهم الصواريخ الطيّارة والأسلحة الجهنّمية عند نهاية المحنة، ويرون المستقبل غارقاً في بحر ظلمات ويعتبرون

جزيرتهم وكلّ القارّة الأوروبيّة معها، مهدّدة بالخطر الجسيم.

«**وحده حالم سريع التصديق** ... » هذا ما قاله السيد هيو دالتون. بيد أن ثمّة أناساً طيّبين في موقع وسط بين التشاؤم والتفاؤل، يتصوّرون أن تصاريح الحبّ تولّد الحبّ وحديث السلم يضمن السلم. نخشى أن تكون لعبة السلم الكبرى غشّاً فاضحاً، مؤامرة غامضة. فأولئك الذين يتكلّمون أكثر من غيرهم عن السلم، قد يكونون، سرّاً، هم الذين يهدّدونه.

في «عالم محفوف بالمخاطر» الذي أقلق، بحقّ، السيد هيو دالتون أما من نداء قادر أن يحرّك مشاعر البشر ويظهر لهم أبعاد جنونهم؟

– في تشرين الثاني ١٩٤٦، رضيت إنكلترة، التي يحكمها حزب العمّال، بالخدمة العسكريّة الإلزاميّة، ولا بدّ أن يحمل هذا الأمر على التفكير أشدّ الناس لامبالاة وتشكّكاً.

واضح أن الأرض ما انفكّت تضطرب.

المأساة الآسيويّة في أوروبّة

٢٨ تشرين الثاني ١٩٤٦

بصراحة، هل أمثلة الحياة السياسيّة والاجتماعيّة التي يُقدّمها الغرب اليوم لآسية هي للتوجيه الخلقيّ أم لعكسه.

نتكلّم عن أمثلة لكي لا نتكلّم قطعاً عن قواعد حياة، **لأن قواعد الحياة لم يبق منها أثر.**

لقد ولّى زمن الأفكار القويّة والمذاهب القويّة والأنظمة القويّة. والمعلّمون بين علمانيّي الغرب لا نجدهم في أيّ مكان.

أوروبّة كلّها تغلي كبركان هائج، تفتّش عن طريقها تفتيشاً عادت لا تملك فيه توجيهات تعطيها الآخرين.

وهذا هو الجانب الأفجع الذي نحياه في أيّامنا.

ولكن إذا كانت أوروبّة في هذا الاضطراب فهل هذا سبب أو عذر لإيصال عدواه إلى الشرق الأدنى، إلى الشرق الأوسط، بل إلى الشرق كلّه بإثارة الأهواء والأحقاد والفوضى فيه؟

لقد انقضى زمن طويل ونحن نقترح على الأوروبيّين عقد هدنة في ما بينهم، على الأقلّ من هذه الجهّة الأخويّة من البحر المتوسّط، عقد تسوية قد تنفع مصالحهم الجماعيّة وقد تضمن لشرقنا سلماً نسبيّاً.

هل كلامنا لا طائل تحته، لكأنه صرخة في الصحراء؟

إن مأساة أوروبّة تستمرّ على شواطئنا وتواكبها قدريّات مسرح

سوفوكليس، وإن جنوناً أعمى يشوّه سماء عواصم العالم الكلاسيكيّ. فكأن باريس ولندن وروما وأثينة وعدداً كبيراً من مدن أخرى اشتهرت بالذكاء وبالفنون، ومنها موسكو، بالطبع، يشوقها أن تتضارب على أبواب آسية فتشخن الجراح وجوهها.

إن مصر في غليان، وفلسطين في حرب، وسورية تقوم بمغامرات تحطّمها، وتركية تتعرّض لضغوط خرساء، وإيران تتقاذفها ألاعيب الدسائس والعنف الخفيّة الرهيبة. أما العراق والمملكة العربيّة السعوديّة فيشغلهما النفط وشرق الأردن الصحراوي الهزيل مأخوذ بحبّ العظمة المفعم بالبطائن الغربيّة السيّئة.

أما في لبنان فنشاهد كلّ هذا بما ينبغي من وعي لكشف أصوله.

لقد قدّم الغرب نفسه، طوال قرون، كمنقذ لبلدان الشرق. فهل لانقاذها تُراه يزجّ بها اليوم في الفتنة ويُثير فيها الجنون؟

نداء إلى العمل من السيد ليون بلوم

٤ كانون الثاني ١٩٤٧

«إن قانون الأربعين ساعة يستمرّ نافذاً، بصورة طبيعيّة، لكن يجب أن تضاف ٨ ساعات اليها بشكل عاديّ. الأربعون ساعة عمل هي أسبوع قانوني والثماني والأربعون ساعة هي اسبوع عاديّ».

يا للباقة هذا التعبير! فالسيد بلوم، في تقدّمه بالسنّ، مجّد العمل وضرورة العمل. فما أبعدنا عن زمن الإضراب مع «انتقال مكان العمل» وعن «أوقات الفراغ» الهنيئة!

قد يكون العمل حزناً بلا فرح ولا جمال. ويتوقّف على الحكومات والناس أن يسموا به ويجعلوه أغنية: أن يُدخلوا الموسيقى والنور إلى ما تصنع أيدينا.

لماذا لا تُجرى كلّ أعمالنا، لا سيّما أشقّها، على ألحان الكمنجات والأراغن الكبيرة؟ لماذا لا تُنزل حتى قاع المناجم أجهزة هذا العصر النغميّة فتضفي عليه سعادة مشجّعة وتُحرّر؟

حين حارب السيد ليون بلوم ارتفاع الأسعار والعناصر المشوّشة طلب من الفرنسيين مزيداً من العمل. كفى حانات وساعات بطالة واحتجاجات مشؤومة وحشد أفكار مريضة! فالعمل دواء، وهو غاية بحد ذاته. فما من

جهد يضيع عند شعب يجدّ في العمل، ولا يعدّ الدقائق وحتّى الساعات. ومصمّم على أن يخلق بعد وأكثر، مهما قاسى من الحرب وويلاته، لا بدّ له أن ينعم بأيّام حلوة.

إن الجزء الأخير من نداء السيد ليون بلوم الجديد يصلح للعالم كلّه. فطوال سنين سمعنا تعليماً آخر يناقض التقليد والحقيقة قيل عنه إنه موقف انسانيّ، لكنّه في الواقع كان كيفيّاً وقتّالا، موقف الأذرع المكتوفة والخطابات الطنّانة والدخان أمام تصاعد المطالب والأوهام.

مع أننا نعلم أن لا شيء يُريحنا من تعب عمل ما مثل عمل آخر، شرط أن نعرف كيف نجعل من التغيير تسليةً ولذة. فالقراءة والعزف والتمرّس على الرماية والعناية بالبستان كلّها أنواع عمل. وأولئك الذين، كمحترفين، يلبّون رغباتنا إنّما يقومون بما هو بالنسبة لنا راحة وترفيه.

حتى لو لا نتمتّع بصوت حسن نُصرّ مع هذا على الغناء. بينما المغنّي البارع يتعب ويملّ.

في كلّ شيء تنوّع واتّزان. «والملل نشأ ذات يوم عن الرتابة».

إن بوسع السيد ليون بلوم، وهو في نهاية عمره، أن يعمل لفرنسة من الخير أكثر مما عمله لها من السوء في أوهامه الماضية.

الاشتراكية الفرنسية ما عادت مفرقاً للأحلام. وإنّ للشمس والحياة طاقة على الانتقام.

قبل انتخاب رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة

١٦ كانون الثاني ١٩٤٧

سنرى من جديد رئيساً للجمهوريّة في فرنسة. وليس ذا حدثاً فرنسيّاً فقط بل هو حدث عالميّ، ليس، طبعاً، لأن رئيس الدولة في فرنسة يتمتّع بقدر كاف من السلطة لكي يوجّه مسار المصير، بل لأنّنا رمزيّاً، لا نتصوّر ماريان[1] إلاّ لابسة قبّعتها.

طوال السنوات الأخيرة بدت الجمهوريّة الفرنسيّة مقطوعة الرأس. فقد بلغت نزوات الفرنسيّين لدى أحد الأحزاب حدّ إرادة الغاء الشخصيّة الهادئة التي جسّدت الجمهوريّة، بوجوه مختلفة، على مدى أربعين سنة.

بيد أن المنطق قد تغلّب وعبر احتراسات لا تصدّق، انتهى الأمر بأعضاء الجمعيّة التأسيسيّة إلى إبقاء «رئيس للدولة» يختلف عن «رئيس الحكومة». إنه لتدبير حكيم، لأن رئيساً للدولة معرّض كلّ يوم للمجادلات وتقلّبات الجمعيّات وقد يجرّ هذا إلى أمور لا تُحمد عقباها.

يصعب تصوّر فرنسة، في اتّحادها الفرنسي وفي العالم، بدون هذا الشخص الجليل الطيّب الخلق الذي أحلّته، في غمرة العنف الثوريّ وحميّا المطالبة بالمساواة، محلّ ملوكها.

التنوّع في فرنسة سيّد الساحة. فما من بلد في العالم تبرز فيه أكثر مما

---

١. Marianne: لقب الجمهوريّة الفرنسيّة.

تبرز فيها شخصيّة المواطن ويبلغ فيه التناقض حداً أبعد، كما ونزعة التغيير والشغف بالطريف وكره السأم.

هذا يفسّر قليلاً لماذا أثار حتى وجود رئيس للجمهوريّة من النموذج المعروف نقاشاً وتندّراً وقحاً. فهل الشخص الذائع الصيت يخلو دائماً من الرونق والبروز! بحيث يبدو قرويّاً في عاصمة العقل والذوق الرفيع وبورجوازيّاً في باريس وحضريّاً في قصر رامبوايه.

لكن النقد السطحيّ ما أقنع الأكثريّة. وها فرنسة اليوم ستجد من جديد رئيسها «المتوسّط» كما تعلّقت بذلك الفرنسي «المتوسّط» الذي ابتدعه السيد هريو وراحت تبغضه اليوم فرنسة المتطرّفة.

يسرّنا هذا بالنسبة لفرنسة، لأن الوضع السياسيّ الذي دام متقلقلاً وغامضاً زمناً طويلاً سينجلي أخيراً.

إن اقتساماً معقولاً للسلطة سيحصل وسيؤمّن توازناً، دائماً أو عابراً، وسيحول دون الأسوأ. وفي غضون ذلك سينصرف الفرنسيّون إلى التفكير وقد يعمدون إلى التحابّ.

بتنا نتخيّل جيّداً، منذ هذا الصباح، ڤنسان أوريول، بوجهه البسّام، وخطاه الخافتة، خارجاً من ڤرساي إلى الإليزه[1].

١. L'Elysée: مقرّ رئاسة الجمهوريّة الفرنسية.

خيار الغرب

٢٠ كانون الثاني ١٩٤٧

في هذه الآونة من التاريخ العالميّ على الغرب أن يختار بين الأفضل والأسوأ. أمامه النهضة أو الموت. عاد الحديث من جديد عن ولايات متّحدة لأوروبّة.

في إنكلترة تنشأ لجنة تكرز بالإنجيل وتتّخذ هدفاً لها أن توضّح، بكل الوسائل، أن الأوروبيّين في تفرّقهم سيهلكون. تلك هي أجلى البداهات.

طوال هذا القرن ما انفكّت أوروبّة القديمة تسعى في آسية وإفريقية إلى توحيد الشعوب تحت سيطرتها فيما كانت هي نفسها تتقسّم. فقد ابتغت لسائر العالم ما كان يفترض أن تبتغيه أوّلاً لها ولأجلها.

إن كل المصائب الجماعيّة، في الأزمنة الحديثة، كان مصدرها الشقاق في أوروبّة، هذا الشقاق الذي سبّب الحروب والكوارث والآلام. وقد تهالك الورثة الأصيلون لأعظم الحضارات في صراعهم حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من وهن وبؤس.

مع أن لكل أوروبّة الغرب الوجه عينه أو أوجه شَبَه لافتة. فالعادات والحياة الاجتماعيّة تكاد تكون هي ذاتها في كلّ مكان منها. والفنون والعلوم وأساليب التعليم تتجلّى كلّها بالطريقة عينها. والأفكار العظيمة وعظماء البشر والمذاهب السياسيّة وأشكال الحياة المادّية تبدو قابلة للتبادل في ما بينها: وللعواصم الآثار التذكاريّة عينها وللأبنية ذات الواجهات،

وللمارّة ذات الملابس وذات السمات. ولا يشكّل تنوّع اللغات عقبة طالما أن كثيرين من الأوروبيّين يجدون فيه، على حقّ، إغناءً وخميرةً للعقل.

كلّ شيء من المنطق إلى القوانين والتقاليد والوقائع يدعو أوروبّة الغرب إلى هذا التقارب الحاسم الذي بدونه قد لا تعود تمثّل أي شيء تجاه دول أعظم منها.

إن المصلحة العليا لهذه الدول العظمى (التي انبثقت عن جوهرها بأشكال شتّى) تقضي بأن لا تتفكّك أوروبّة سياسيّاً واجتماعيّاً.

إن الانكليز الذين يعملون على تشييد هذا البناء هم أحكم من مواطنيهم الذين يعالجون، بقليل من المنطق والحذر، قضايا الشرق الأوسط، بحجّة توحيده، ويقترحون عليه بغبطة أن يتخلّى عن شخصيّته، عن أصالته، عن مبرّر وجوده.

فالشقّة أبعد بين مصر الحديثة وتركية الحديثة مما هي بين إنكلترة وهولندة وبلجيكا وفرنسة. وهي أبعد بين سورية وإيران مما هي بين إيطالية وإسبانية. وألمانية هي أقرب إلى هذين البلدين منها إلى شعوب إفريقية الشرقيّة وشعوب الهند.

أتت هذه الملاحظات عفو الخاطر. وثمّة ملاحظات أخرى ملائمة تصحّ في هذا السياق. فما يوصي به السيّد تشرشل ولجنة أوروبّة هو الخلاص في الحاضر وتأكيد الانبعاث.

لا بدّ من بلوغ هذه الغاية كيفما تطوّرت الأمور، لأن ضرورات الحياة ستتغلّب على التباطؤ وعلى عماية البشر وتعنّتهم.

موقع الكرسيّ الرسوليّ

٢٩ كانون الثاني ١٩٤٧

بين قوى هذا العالم الروحيّة والزمنيّة يتميّز بوضوح موقع الكرسيّ الرسوليّ.

ويكفي لكي نتأكّد أن ليس في هذا العالم ما يضاهيه أن نجول بالفكر حول الأرض. ففي كل مكان بلبلة وحيرة وقلق واضطراب.

حيثما نتوجّه نسمع أحاديث لا طائل تحتها وخطابات تمرّ كغيمة صيف. فالصيغ الوقتيّة التي يقترحها السياسيّون وعلماء الاجتماع تشيخ غبّ ولادتها وتصبح ساقطة قبل أن يتسنّى اختبارها.

في كلّ مكان يبرز تقلقل النظم.

ذلك أن عقل البشر هو أدنى من مهمّة تتجاوزه. وأشهر العبقريّات النيّرة عادت لا تضيء، شأنها شأن مصابيح العذارى المجنونات.

ولكن، في الوقت عينه، كلّما اقتضى الأمر، ارتفع صوت البابا الهادئ ليدلّ الشعوب على طريقها. فهذه السلطة التي لا تروم إلا خدمة الله تستمدّ من عقيدتها ومن تقاليدها الحقائق التي تستطيع إنقاذ العالم.

هي تحمل إلى الإنسانيّة التي اعتراها العجز أعظم قواعد المحبّة والعدالة وتُقدّم للمشترعين الضائعين في القوانين التي يسنّونها الحلّ الدائم للرجاء وللحياة.

لا بدّ من الاعتراف، بلا تحيّز، بأن في متاهة الفوضى والتناقض وفي

صدام التعاليم والأحكام المسبقة لا نجد ما هو أمتن وأجدر بالمؤاساة من هذا الموقف الخالد. موقف يصلح للبشريّة كلّها. ولا يقتضي الاقتناع بذلك أن نؤمن، بل يكفي أن نرى ونسلّم بالحقيقة.

يسود سلم عميق كلّ ما يتعلّق بالكرسيّ الرسوليّ. وقد جعل قضاؤه من التضحية كسباً ومن التجرّد خيراً.

إن كلّ ما يتصارع من أجله أصحاب المطامع تُعلّم الكنيسة اعتباره زائلاً وثانويّاً، وتجعل فوق شرائعنا حبّ الله وحبّ القريب اللذين هما ينبوع السلام.

كيف لا نعود إلى هذه الأمور؟ كيف لا نقدّمها كوسيلة حكم، إرواءً للظمأ المرير، إلى عقل أسياد السياسة وقد خيّبته الأوهام.

الفوضى التي لا نراها

أوّل شباط ١٩٤٧

مع الأغذية الماديّة لا بدّ من سلطة معنويّة عالميّة تُعنى بالأغذية الذهنيّة للشعوب.

ففي أيّامنا تكاد تعمّ الفوضى في كلّ مكان، في ما خصّ هذا الشأن الخطير. كلّ ينشر على هواه ما يريد. بيع السموم يخضع لنظام أمّا بيع الكتابات المسمومة فلا. وهكذا يتساوى الجنون والتعقّل.

لا بدّ أن تُفرض على البشر رقابة ما على انحرافات الفكر. وما يدفعنا إلى الكتابة بهذا الصدد إنما هو حبّ الحرّية فوق كلّ اعتبار، لأن لا شيء يقيّد كالسفسطة وكالكذب. فقد بتنا، اضطراراً، سجناء نظريّات وصيغ نجهل جوهرها.

ما من شيء يستعبد أنبل ملكاتنا كإغراء علم نفسيّ موجّه نحو السيطرة. والضرر الذي ينشأ في هذا القرن هو غالباً ضرر واع أكثر منه بلا وعي.

تهدف الدعاية السياسيّة والاجتماعيّة إلى حملنا على التفكير كما يشاء من يوجّهونها. وهكذا نحسب، على مدى زمن طويل، الخداع حقيقة والقضيّة السيّئة قضية عادلة. وهكذا تنقضي حياتنا في البلبلة.

إنّ ما يُعرض يوميّاً للقراءة أصبح من الوفرة بحيث يستحيل علينا أن نحكم عليه بدون مخاطرة.

ما عاد حسّنا النقدي يعرف العمق. وبمجرّد تسليمنا بأن نكون سطحيّين

نقبل بأن لا نكون عادلين .

يبدو من الطبيعيّ أن يخضع ما يُعلّمه بعض الناس غيرهم من الناس لفحص ما ، وأن يُبدي العارفون رأيهم فيه .

هذا هو بالضبط السبب الذي يجعلنا نُحظّر على أولادنا قراءة بعض الكتب .

ما عادت المدرسة هي المدرسة الحقيقيّة بل أصبح الشارع مدرسة مع ما يُلصق فيه من إعلانات وما يشهد من مقامرات . ففيما يحظّر استعمال الأفيون ، فإن ما يضرّ بالعقل وبالروح لا يُثير قلق الرقباء .

حان أن تُصان الحرّية الأصيلة ، الحرّية في تأمين اتّزان ملكاتنا وحياتنا .

كلمات ضائعة (٢)

٧ شباط ١٩٤٧

لا بدّ أن يتغلّب العياء في النهاية على المصاعب الهائلة التي نعانيها بعد الحرب.

وهذا لا يعني أنّه يجب مقاومة المعضلات الكبرى التي تطرح بحلّ استسلاميّ، بل على مهل ليتجلّى الواقع وتخرج الحقيقة، بكلّ عريها، من قاع البئر.

فيما رجال السياسة يتعبون سدىً لتنظيم شؤون هذا العالم، تعمل الطبيعة بوسائل لا تقاوم. ذلك أن الزمن يكشف هشاشة الأبنية الوهميّة والتجربة تقضي على التصاميم التي لا يدافع المنطق عنها.

منذ زمن تبرز تعقيدات السياسة العالميّة على مسرح الشرق الأدنى. وبعد حين تنتقل إلى مسرح آخر. فمن طبيعة الإنسان أن يخلق دوماً لنفسه متاعب بكلّ طريقة وأينما كان.

في مجال ما يسمّى بـ «الانتاج» في عصرنا، تحتلّ صناعة الهموم والبؤس مركز الصدارة. وهذه الصناعة هي بين كلّ الكحول وكلّ السموم التي تقطرّها أنابيقنا الأوفر والأسوأ. ذلك أن العقل البشريّ ما بلغ بعدُ مرحلة التوازن اللازم لكي يسيطر على مضارّها.

أكيد جداً أن عدداً هائلاً من الناس الذين يوجّهون ويلبلبون الرأي العام لا يعرفون بالضبط ما يفعلون. فهم لا يرون العواقب البعيدة، نوعاً ما،

التي تُخلّفها خطاباتهم وأفعالهم.

ضروب السلم العرجاء هي التي تصنع الحروب. ومطامع المتمدّنين هي التي تهدم المدنيّات. ورجال الدولة هم الذين يعطّلون انتظام الدولة.

قد يستطيع كلّ جيل أن يقاضي بمرارة سلفه ويعترض على أهوائه وتجاوزاته وأخطائه.

وبعد مئة سنة من الآن سيكون للأرض، شئنا أم أبينا، وجه آخر. ستكون قد سارت، وحدها، عند الاقتضاء، في اتّجاه توحيد الإنسانيّة المشتّتة.

لو توافرت لنا الحكمة في هذه الدنيا لتهيّأنا لمثل هذا الحدث، البالغ الخطورة، بدل أن يكون طارئاً علينا.

ولا يبدو أنّنا في هذا الاتّجاه.

معاهدات السلم المزعومة

١٢ شباط ١٩٤٧

إن معاهدات السلم التي عُقدت، أوّل من أمس في باريس، كشفت منذ الآن عن عدم استقرار السلم. فماذا يعني التوقيع مع الاحتجاج؟

ليست معاهدة سلم وثيقة حرّة مطلقاً حين يوقّعها المغلوب، لأن الهزيمة والمصيبة تضغطان على قبولها. فالمغلوب يوقّع وهو يئنّ مرغماً، لأن لا سبيل آخر أمامه. وساعة السلم، في قرارة الضمائر، هي غالباً ساعة الغضب والحقد.

إذا كانت الحرّية، كما يؤكّدون، هي عنصر الموافقة الأوّل، فهي لا توجد بين غالب ومغلوب (كما بين بلد حامٍ وبلد محميّ). ثمّة غشّ لازم دائماً فرع القانون المعنيّ بهذه القضايا.

السلم الحقيقي سلطة متجرّدة، هيئة تحكيميّة تستطيع أن تقرّه. وبعيد عن المعقول أن ينتج وفاق قابل للاستمرار عن نقاش بين المنتصر وبين من هو تحت رحمته، اللهم إلا إذا افتُرض أن الغالب يتحلّى بكرم خارق في النفس وبحكمة تفوق طاقة البشر.

لو أن ألمانية لم تنتزع من فرنسة، سنة ١٨٧٠، مقاطعتين، لربّما كان بالإمكان اجتناب الحربين العالميّتين في القرن العشرين. ولكان بالمستطاع تصوّر توازن آخر للعالم.

إن نقطة انطلاق الحروب تكاد تكون دائماً نتيجة سلم أسيء عقده، سلم

قام على القوّة.

وريثما تخضع الأرض كلّها لسلطة وحيدة، سلطة عالميّة، **يبقى السبيل الوحيد هو إعطاء الشعوب، بملء رضاها، قاضياً يكون غريباً عن نزاعاتها.**

إن معاهدات السلم المختلفة التي عُقدت، منذ حين، في صالون «الساعة» بباريس، ستشبه تلك التي سبقتها. ولا شكّ أن الكلمات الاسترضائيّة والمجاملات سترت فيضاً من المرارة والدموع. فليس هكذا يُصنع السلم لكي يعقب النظام البلبلة وتُنشأ العاطفة الإنسانيّة ويهدأ الشعور ويُقلع أصحاب النيّات السيئة عن نصب الشراك.

أمّا جمعيّات الأمم، الجمعيّات العليا، الجمعيّات المُحبّة للعدالة، فنراها مصابة بالعلل عينها. يجري التصويت فيها مع العملاء، كما يستدعى الأتباع، فليست القناعة هي التي تقرّر، وما التصويت الفرديّ إلاّ بالظاهر. إنه تصويت جماعيّ كما كانت الحال لدى ممثّلي المقاطعات الخاضعين لطبقات الإكليروس والأشراف والشعب، في عهد النظام الملكي القديم، حين كان التصويت يجري «بواسطة ممثّلي الطبقة».

لن يكون سلم طالما ليس للأرض كلّها حكمٌ واحدٌ (أو الجزء من الأرض تخضع له سائر الأجزاء).

عبثاً يُفتّش عن قاض أعلى في واشنطن، في لندن، أو في موسكو، والأمم الصغيرة عاجزة عن المهمّة لأسباب إنسانية، وقد تأكّد هذا الأمر سنة ١٩٣٩، حين عرضت ملكة هولندة وملك البلجيك وساطتهما على غير جدوى.

لعلّهم يعودون، بعد أن تحلّ مصائب جديدة، إلى السلطة الوحيدة التي لا يُداخل إقرارها الحقّ هوىً ولا بغضٌ، إلى السلطة التي ملكوتها «ليس من هذا العالم»، إلى الصوت الوحيد الذي لا هَمّ له الاّ الحقيقة والسلم.

في سنّ ماتوشاليم[1]

١٥ شباط ١٩٤٧

ما رأينا بعد حتى الآن سجيناً بعمر الماريشال پيتان.

كما أننا ما رأينا، أياً تكن الظروف، رئيس دولة انتخب وهو بعمره.

لقد شارف الماريشال (وعُذراً إن لم نقل الماريشال السابق، بسبب ضيق الوقت) على عامه الثاني والتسعين. ويصعُب علينا أن نتصوره ما يزال مُعتقلاً وأنّ زوجته تُضطرّ أن تطلب مشاطرته المصير. إنه لموضوع دهشة للعالم بأسره.

على هذا الشاطئ من المتوسط أذهلتنا دائماً قضية پيتان. لأنه بدا لنا دوماً أن الماريشال، الذي عُيّن لأداء مهمّة ما، قام بها تماماً كما ظُنّ أنه قد يقوم بها.

منذ سنة ١٩١٧ وصفه ريمون پوانكاره كما رأينا بعد مرور خمس وعشرين سنة. فمذذاك (وفي زهوة مجد ڤردان) وجّه النقد إلى التصرّف الذي أدى إلى تعيينه في أحلك أيّام الاندحار.

مذ كان پيتان يحرز الانتصار في فردان دار كلام على انهزاميّته؛ فحكاية هذا الرجل ما تزال تتطلّب تفسيراً.

بالاختصار، إن الماريشال پيتان، وهو على عتبة العام الثاني والتسعين،

---

١. ماتوشاليم (Mathusalem) : بطريرك توراتي زُعم انه عاش ٩٦٩ سنة.

ما زال سجيناً.

وإن لم يتدخّل أحدٌ في قضيته فقد يبلغ المئة سنة وهو في السجن. لقد ابتدع عصرنا إصلاحية للشيوخ بعد أن عَدَل عن إصلاحيّة الأولاد.

إن زمن المفارقة، على ما نرى، ما انتهى بعد. ولم نبلغ بعد نهاية تسلسل المعجزات.

إذا كان الولع بالسخرية مستمراً في فرنسة وللتنكّت حقوقه، وإذا لم تكن صحيفة «الكانار أنشينيه»[٢] قد غرقت بعد في السويداء، فلا بدّ من القيام بعمل ما لإطلاق سراح الماريشال پيتان.

وان عجز الوزراء عن هذا الامر، فان على القوّالين الهازئين ان يتولّوه.

منذ فشل مسرحية البرغراف[٣] ما شهدنا حدثاً كان أشدّ دويّاً.

٢. *Le Canard Enchaîné*: صحيفة ساخرة.

٣. «Les Burgraves»: مسرحية لفكتور هوغو أدّى فشلها الى تخلّيه عن التأليف المسرحيّ.

كرنڤال (المرفع)

١٨ شباط ١٩٤٧

تقليدياً، قبل فترة القطاعة يُطالب الجنونُ بحقوقه. لكنّ في أيّامنا عدنا لا نصوم فقط، رغم إرادتنا، بعد المرفع وقبله، بل بنتيجة سوء إدارة العالم.

الكرنفال، كالتظاهرات الوثنية المحمومة، هو ثأر الغريزة من الأنظمة، هو الزمنُ الذي يُباح فيه التنصّل من القيود، الزمنُ الذي يُمكن فيه شرعياً إظهارُ حبّ الخطيئة التي نبطّن شهوتها.

لا يبدو الآن أن ثمّة ما يحمل العالم على الضحك، فهو طوال سنين لم يضحك إلاّ لكي لا يبكي. فسلسلة المرافع الجنونيّة ما حملت إلى البشرية الا تهوّرات دامية. والآن ها الأحلام الفاسقة ترجع مع مرارة الكحول فيجد الناس متعة بانتهاك القوانين.

إن بين المرفع وأربعاء الرماد، بين الطهر والدَنس، تكمن مأساة بودلير:

«هو الشيطان من يُمسك بالخيوط التي تحرّكنا»

لئن نظر أسياد الحياة الروحيّة بحزن إلى هذا المشهد فهم يستمدّون منه دليلاً ليبيّنوا حقيقتنا حين نشذّ عن الروح والعقل.

ما من شيء أفجع من مثل هذا التوازن الذي يحكم العالم. جبال أوهام تتعاقب مع أودية دموع. فما من ابتهاج ليليّ الاّ ويُدفع ثمنه عند الصباح. وما من سعادة لا تحمل في ذاتها بذور قلق أو بؤس.

بيد أن المرفع قد جاء مع وعوده بالنسيان وتحليله فقدان الصواب.

ونحن ننظر اليه كما هو : موكب أقنعة . ونتطلّع بعين متسامحة إلى مهزلة الابتهاج التي اعتراضاتها الأخيرة هي دائماً اعتراضات المصير .

ينبغي أن نتذكّر

١٩ شباط ١٩٤٧

ها قد عاد أربعاء الرماد، وهو صورةُ واقعنا.

في نطاق المحسوس، تتقلّص الأعجوبة التي هي الإنسان إلى شيء ضئيل يذوبُ بدوره في الهواء.

«المادّة تبقى والشكل يضيع»

في مواجهة الذين يحسبون أن كلّ شيء ينتهي مع هذا الرماد وهذا الغبار يؤكّد الإيمان، بثقة، على القيامة واللانهاية.

هل من يقولُ لنا ما معنى الحياة المنقطعة عن كلّ رجاء؟ وما هو الوجود إذا كان لا يحمل في ذاته الاّ حده ونهايته؟ وأي تشريع سيكفي ليسوس هذا العصر البائس الذي تحالف على تهديده الحسد والحقد والألم.

وسطَ الهيجان يعاودنا، كما الدغدغة، كما الصمت، التفكيرُ بأنّنا ذرّة غبار رماديّ وأن هذه الحياة ممرّ، بل محطّة، وأن بعد مغامرة الولادة والموت، سنجدُ في مكان ما السلام الذي هو في الطبيعة والنور الذي لا يُمكن الاّ ان يكون أبدياً.

سنة بعد سنة، تُدهن جباهُنا بالرماد الذي يُثير فينا التأمّل. وهذه الأمثولة الكبرى تصلح في السياسة كما في سائر الشؤون. ويجبُ أن نواجه بها المطامع الجامحة كما تفعل الكنيسة، مرّة كل سنة، في محاولة ردعنا عن بعض الحماقات.

لا بدّ أن نكون أصبحنا حقّاً أخفّ من هذا الرماد لكي نتيه في شهوات تبدّدها نفحة واحدة، لنبتعد عن الصفاء الروحيّ المتروي الذي وحده يضعُ الحواجز والشرائع.

على سطح البسيطة كلّه ليس أسخف من موقف اكثريّة البشر الحالي ومن الصخب الذي تُثيره.

وهل كلّ هذا الضجيج الاّ محض غبار! ...

طريق الهند

٢٢ شباط ١٩٤٧

مهما جرى في الهند، ورغم كل الطوارئ، لا نرى أن هذا الجزء من العالم سيعامل بالنهاية إنكلترة باللامبالاة.

بعد أن تكون الجيوش البريطانية قد رحلت وحين يُصبح واقع السلطة والمسؤوليات بين الأيدي الهنديّة، لا بدّ، بعد مرحلة تهيّج ومخاطر، من عودة صداقة الهند لأنكلترة. وسيُفرض توازنٌ على الهند كما على الصين، بين آسية وأوروبة والعالم الجديد، توازن سينطلق من أفعال حكيمة.

ما زال الإنكليز شعباً عظيماً جداً، وقد تصبح جزيرتهم، في أقصى طرف أوروبة، في المستقبل البعيد، أحد مراكز حكومة اتّحاديّة ما على صعيد عالميّ.

من خلال البطء الظاهر، تتطوّر السياسة الدوليّة تطوّراً لا يقاوم. **فثمّة مرحلة من حياة الأمم تتهيّأ وتساعد، عبر المأساة الحالية في مجالات القطيعة الجسديّة، على تجمّع معنويّ عظيم.**

ما زال الكثير من التعصّب الوطنيّ وقصر النظر يقاوم مسار العالم. لكن لا بدّ، بحكم الضرورة، وثقلها، أن يتغلّب مجرى الحياة على كلّ شيء. **فأي شعب، أينما كان، وكيفما كان، حين يتحرّر من سيده، لا بدّ له أن يسعى، بصورة طبيعية، إلى حليف.** إنها القاعدة.

قبل أن توجد أوروبة وحين لم تكن أميركة حتى حلماً من الأحلام،

كانت آسية القديمة تنمو في صراعات دامية وفي الفوضى. فلنحاول أن نتخيّل ما قد يكون الآن حال كوكبنا لو اقتصر على الدول العظمى الثلاث: الصين واليابان والهند. هكذا، بالمنطق وبالتعارض يجب أن يُبرهن لآسية عن وجود قارّات أخرى.

يجب أن نتمنّى للهند ولإنكلترة أن يطول عمر غاندي. فلو قيّضت لغاندي شيخوخة باسلة وواعية، فإنه وأتباعه سيوفرون على بلادهم المحن الكبيرة ولن تكون طريق الهند بعد هذا طريق الشقاق الأبديّ.

إن الإنكليز، وهم يعيدون الآن النظر في سياستهم يعملون، من جهتهم، ما يستطيعونه لتلافي الأسوأ.

مدى حيويّ

٢٥ شباط ١٩٤٧

إذا ظلّت الأمور تسير كما هي الآن فإن أكثر من أمّة ستعود قريباً إلى الحديث عن «مدى حيويّ».

والنّظرية الشهيرة ستستعيد مكانها تحت الشمس.

في الواقع، كما في الحقّ، ان كانت الشيوعيّة تصلح لشيء فهي تصلح للأمم كما للأفراد. وهكذا وجب على بلدان معيّنة، **عملاً بالعدالة الاجتماعيّة الحقّة**، أن تتخلّى عن اراض لها لآخرين لن نسمّي أحدهم.

إن طبقة العمال الكادحين الحقيقيّة هي طبقة الأمم، **التي هي كأمم**، تختنق في ديارها، تموت داخل حدودها، وليست طبقة الأمم التي لها مساحات شاسعة لا تعرف كيف تُصلحها ولا تتوصّل إلى الانتفاع بها.

إذا قضت العدالة أن يجري توزيع منصف للموادّ الأوّلية فمن المنطق أن تنال الأمم هذه الموادّ بدون أن تضطرّ، فوق ذلك، إلى دفع ضريبة سياسيّة ومعنويّة وبدون أن ترزح تحت وطأة النير. إن ضروب السلم التي تُعقد لا تأخذ بالحسبان حقائق أولية. ويجدر القول ههنا، مع التحفّظ بصدد النصر والهزيمة وقانون الغالب والمغلوب، أن الإنكليز بلغ عددهم في جزيرتهم خمسين مليوناً والبلجيك والهولنديين والإيطاليّين بلغ عددهم أيضاً خمسين مليوناً وهم في شبه جزيرتهم. وبإمكان الألمان، وقد أصبحوا كوكر النمل، أن يتساووا بهم.

ان تكاثر السكان في أوروبة هو الذي أنشأ المستعمرات والأمبراطوريات الحديثة. وقبل اكتشاف العالم الجديد قلّما طرحت مسألة المدى الحيوي. فبعد حرب السنوات السبع ما كانت كندة، التي خسرتها فرنسة، تمثل الاّ «**أميال مربّعة من الثلوج**».

ان معاهدات السلم، المصطنعة إلى حدّ كبير، تحمل في أحشائها الخيبة والحرب. ولا بد، لدرء الخطر، أن تنشط منظّمة الأمم المتّحدة بكاملها فتعمل على هدي العقلانية وتفهّم الأمور.

هناك حدود للأخطاء التي تُقترف اليوم في العالم. فإن تخطيّت حلّت المصيبة عاجلاً.

من الجنون دفع الشعوب إلى اليأس، لا سيّما اذا كانت شعوباً عظيمة تجد في نباهتها وشجاعتها وأنظمتها قوّة لمواجهة الموت بلا نهاية.

والآن ندعو الجميع إلى التبصّر في مصير الأفراد ومصير الأمم لكي يُدرك عنف التناقض وكذب النّظريات والحدّ الذي وصل الغشّ اليه.

أدواء هذا الزمن

٢٦ شباط ١٩٤٧

حين يُكبّ العقائديّون والمنظّرون، أكثر ممّا يفعلون، على درس أوضاع المناطق والشعوب في العالم، وحين يُحسنون فهمها، فإنّهم، إذا سلمت نيّاتهم، لن يعودوا يقترحون على الجميع ذات القانون الاجتماعيّ وفي الوقت عينه.

إن يكن ثمّة شيء واضحاً، في عالم اليوم، فإنما هو بؤس جميع الناس وليس ما يشير الى أن عبر هذا البؤس أملاً بارتياح وشيك يلتمع في الأفق.

ترانا نمضي من فوضى إلى فوضى، ومن هاوية إلى هاوية فكلّ شيء يجري كما لو أن الأمم، بمجموعها، عادت لا تملك أعصابها فالارتياب شائع في كلّ مكان. ولم يبقَ بوجه حكومات عاجزة الاّ حكومات مستبدّة.

من جهة، ها الشكّ يغزو ويدمّر كلّ شيء. ومن جهة أخرى ها عبوديّة حقيقيّة تحمل شعار المساواة.

سواء تطلّعنا عن يمين أم عن يسار تراءى لنا مشهد بشريّة مفجوعة. وإن حالفنا الحظّ أو القدر وسمعنا هنا أو هناك خبراً عن زوال التوتّر، وإن برزت حكمة ما في حلّ إحدى المشكلات فما أن يتسنّى لنا التنفّس حتى تدهمنا صعوبة جديدة يحفّها الخطر.

وراء ظواهر قِتالية أو حميدة يشنّ كلّ من فريقي العالم حرباً فتّاكة على

الآخر. وهكذا تزداد الدعايات نشاطا ومكراً وحدّة.

الدّنيا كلّها تدفعُ ثمن هذه المأساة الجماعيّة التي تتقنّع بوجه إنساني خيّر. فبحجّة المساواة بالحصص، على كلّ صعيد، أسيء الى الطبيعة اساءة رهيبة.

فيما الطبيعة تغذّي بسخاء كلّ الكائنات الحيّة (ولا نريد التحدّث عن مجاعة لدى الحشرات والطيور) يحيا البشر، رغم كل علمائهم ومكتباتهم وذكائهم، في غمرة البؤس.

إنها النتيجة الساطعة التي أدّى اليها قرن أو قرنان من كتابات اجتماعيّة واكتشافات.

ليس التشاؤم ما يملي علينا هذا الكلام بل المنطق. فالوقائع صارخة إلى حدّ لا تحتملُ معه نقاشاً فقد يمثّل الإنتاج العالميّ اليوم عشرة أضعاف ما كان عليه قبل مئة سنة، فيما لم يزدد، مذ ذاك، عدد البشر ثلاثة أضعاف. وتحتاج أوروبة وآسية إلى كلّ شيء فيما كانت البحبوحة، قبل مئة سنة، تعمّ العالم بأسره.

هل نستخلص من هذا إلاّ عبرة معنويّة؟ هل يسعنا أن نقترح للخروج من هذه الظلمة شيئاً آخر غير قانون محبّة يُعتمد بحرّية؟

لو أنعمنا النظر حولنا لرأينا أن العمل، حيثما كان، أصبح عملاً شاقاً. ففي كل مكان جُعل الجهد البشري، وهو أجمل وأسمى شيء، مساوياً للعبودية.

إن الحياة التي توقّع منها عصرُنا أن تنمو كتناغم موسيقي كنشيد تراجعت عمّا كانت عليه في القرون الوسطى.

فلكي لا نتعرّض لغرق جديد، هل ثمّة علاج، على صعيد فرديّ وجماعيّ، غير ردّ الاعتبار للحكمة القديمة، غير العودة إلى الشأن الروحي في نهاية المطاف؟

تأميمات

أوّل آذار ١٩٤٧

منذ راج زيّ التأميمات فتضاعفت، تضاعف معها عدد معارضيها. ولا شكّ أن بين هؤلاء سيئي النيّة، لكن بينهم كذلك متبصّرين وعقّالاً أصبحوا الأكثر عدداً.

لا بدّ، بادئ ذي بدء، من الملاحظة أن التأميمات تنجح (بين بين) أو تفشل، حسب البلدان التي تتولاّها. فالنجاح (النسبيّ) أو الفشل يتوقّفان على نوعيّة الإدارة ونوعيّة المواطنين. إنها قضيّة نفسية كقضايا كثيرة غيرها. هي مسألة ضمير مهنيّ، مسألة إخلاص وطنيّ وتمسّك بالنظام أيضاً. وهي **أخيراً مسألة طبيعة الأفراد بالذات**. ذلك أنّ صناعة مؤمّمة أو أعمالاً مؤمّمة، كيفما نظرنا إليها، لن يكون لنا من الحيويّة والزخم أكثر مما للّذين يُشرفون عليها.

حين يعمل المرء للدولة وحين تعود المنافع للدولة، وحين تكون الدولة هي من يدفع ويسدّ الثغرات، فمن المحتمل أن تقلّ الأرباح وتزداد الثغرات اتّساعاً.

بوجه عامّ، لا يعمل المرء للدولة كما يعمل لنفسه. إنّه لتفكير سليم. وكلّ إدارات الدولة، على درجات متفاوتة، تؤكّد ذلك.

ان آخر وسيلة تلجأ اليها الدولة هي الاحتكارات وهي (فيما عدا الاستثناآت الشرعيّة الضروريّة) نهج يثير جدلاً شديداً. صحيح أن من

يستأثر بالسوق يستطيع أن يفرض إرادته، ولكن لقاء أي ثمن وأي تضحيات وأي تجاوزات.

لو استثينا بعض البلدان، الفريدة بنوعها، حيثُ إدارة الدولة حكيمة وسليمة (لأن المناخ يؤآتي ولأن الشعب يتحلّى إجمالا بأخلاق عالية) فإن الدولة حين تتدخّل لا ترحم قطّ. فمنذ بُدئت كتابة التاريخ وبدأ الاقتصاد السياسيّ تأكّد أن الدولة تفتقر إلى قلب وأحياناً إلى رأس وهذا أخطر بكثير.

إن الحياة المُعاصرة تمضي بنا من تطرّف إلى تطرّف. فلما رأت الدولة أن بعض المشاريع والصناعات تعظم أهميتها جرّدت أصحابها من ملكيّتها وضمّتها إليها. نحن نرى، في فرنسة مثلاً، أن الدولة التي تولّت شؤون الصناعة والمصارف والتأمين مُنيت بخسارة كبيرة في مجالات شتى فلجأت إلى تدابير موقّتة تمويهاً على استثمار سيّئ ولّد عجزاً.

ليس للدولة أعباء عائلية فهي عازبة. وهي تُبدي على هواها لامبالاة أو سخاء، كما لو أنها، بالنهاية، لا تتحمّل مسؤولية كل عائلات الأمّة.

لقد خيّبت آمالنا التجارب التي تجري أمام أنظارنا.

والأمثولة التي تنبثق عنها ستفيد أحفادنا. أمّا الآن فعلينا أن نُذعن لانتظار ما ستبرهن عليه الوقائع وهو سبيلنا الوحيد طالما أن التفكير السليم والتعقل عادا لا يكفيان.

نهاية پروسية

١٣ آذار ١٩٤٧

ان پروسية في منطقة براندبورغ الحدوديّة، پروسية الجمعية التوتونية، پروسية آل هوهنزولرن[١] قد ولّت.

ولئن بقيت في الجغرافية فإنها امّحت من التاريخ.

بعد خمسة قرون قضتها وهي تتكوّن وتتّسع وتحيا على الغزو والاغتصاب، ها هي الآن رهن التجزؤ. وقد خُصّ مختلف جيرانها بقطع منها. وهذا ما لم تعهده قطّ طوال ماضيها المليء بالمغامرات. فلمّا سحقها نابوليون ما توارت من الخريطة بعد موقعة يينا. ولمّا تقلّصت إلى نصف حجمها ما لبثت أن نهضت من جديد بعد سبع سنوات، ووجدت نفسها في وسط التحالف ضدّ فرنسة. ثم أصبحت بسرعة فائقة أمّة عظمى وأمبراطورية. ومن موقعها القويّ، في قلب أوروبة بين نهري الرين ونييمن، هدّدت مَنْ حولها شرقاً وغرباً.

كانت پروسية تحلم بغزو منطقة الفلاندر، من جهة، وأوكرانية، من جهة أخرى. وها اليوم في موسكو يعمل المنتصرون على القضاء عليها.

لكن پروسية كانت تعدّ حتى الأمس أربعين مليون نسمة وكانت متفوّقة في إدارتها ورائعة في تصنيعها. كانت بلداً فريداً في كبريائه وطموحه

١. La Marche de Brandebourg, l'Ordre Teutonique.

ونزعته الحربيّة.

عاب المؤرّخون على نابوليون قلّة خبرته بعلم النفس لأنّه جعل پروسية تستمرّ مبتورة وتتلظّى حقداً. ورأوا أن كان عليه إما أن يعاملها بحلم أو يمحوها من الخريطة. . . وكان بلوخر، بالفعل، المنتصر الأخير في مَوقعة واترلو.

وهذه المرّة تغلّب الحلّ السلبي، الحلّ الجذري، ولكن الى متى؟

كل التقسيمات، حتى أشدّها دمويّة، وكل الآلام ما محت بولندة من الوجود. ذلك أن شعباً أراد الحياة لا يتفكّك ولا يموت.

لكنّ ما نخشاه هو أن تعاود پروسية مغامرتها التاريخيّة انطلاقاً من الجمعيّة التوتونيّة ومنطقة براندبورغ الحدودية.

لن نقول كان من الأفضل اتّخاذ موقف شهامة ونبل حيال پروسية، بل نكتفي بالتفكير بأن شعباً كهذا يصعب أن يلقى في الظلمات وأن يوضع، بلا نهاية، تحت النير وأن الجوّ الرماديّ والمناخ الرومنسيّ في أوروبة الشماليّة يؤاتيانه ظاهراً. فمهما فعلت به أوروبة لن تنفكّ تجده على مستوى صدرها ورئتيها.

إن صفحة التاريخ التي كُتبت في موسكو يوم ١١ آذار الى متى ستبقى سليمة من الأذى. إن أوروبة الحائرة الفاقدة التوازن، منذ ذلك التاريخ، تهيّئ في أعماق أحشائها ولادة جديدة.

ماتت پروسية فلتحيا أوروبة! لكن شرط أن تدوم أوروبة بعدها وشرط أن ممّا بقي من ألمانية، المانية البيردورر، وجان سبستيان باخ وغوته، تخرج فلسفة تتّسم بطابع إنسانيّ حكيم.

«التفصيل جيّد، لكن يجب أن تعاد الخياطة»، هكذا تكلّمت كاترين مديتشي. أجل، يجب طبعاً إعادة الخياطة.

سياسة إنكلترة العامّة

١٥ آذار ١٩٤٧

مرّة أخرى دان السيد تشرشل حكومة العمّال. دانها بعبارات شديدة اللهجة. إنها طريقته الخاصّة في التعبير. فأسلوبه القارص، المجازيّ، ينمّ عن حيوية ذهنيّة بديعة.

تعمد الأقلّية التي يمثّلها تشرشل إلى التهكّم اللاذع فيما الأكثريّة تزداد تصلّباً، لأن من طبيعة «العقائديين» المضيّ في تفكيرهم حتى النهاية، أياً تكن الحقيقة التي يواجهون.

أمام المصاعب الهائلة التي تجهد انكلترة في تذليلها فإنها لا تفكّر بحكومة ائتلافية. ولعلّ المحافظين، في قرارة نفوسهم، لا يرغبون بذلك. لأن الائتلاف قد يعني المساومة على قضايا لا تحتمل أنصاف الحلول، فضلاً عن أن المساومة قد تُكرّس البلبلة في الانتخابات المُقبلة. والمهمّ، بالنسبة لانكلترة، هو أن تستمرّ أو لا تستمرّ الأمبراطورية التي هي الآن (لأن في الامبراطوريّات، كما في الجمهوريات، مستويات ودرجات).

منذ وليم پيت التي ما عرفت المملكة المتّحدة عهداً أشد قساوة. فهل لهذه الأنكلترة المُستضعفة من پيت فتى، رغم مزاياها الرائعة؟

مع هذا، ما زال صبر الإنكليز، في جزيرتهم، يفرض الإعجاب. وإنها لظاهرة مدهشة جداً، في عصرنا، ما يُبديه هذا الشعب العظيم من سموّ خلقي ووطنيّة صادقة وهو في مهبّ المخاطر منذ ثمانية أعوام.

واضح أن انكلترة أرهقتها سياستها الاجتماعيّة، فهل يمكنها، بذات الوقت، أن تسرّع تطوّر مؤسّساتها الداخليّة وتصون تضامن الشعوب التي تدور في فلكها؟

المستقبل كفيل بالجواب. فان طابق التصوّر العمّالي مفهوم الأمبراطورية، كما كان منذ عهد الملكة اليزابيث، فلا بدّ للأنكليز أن يُدركوه.

الفرع الفرنسي لمؤسّسة العمّال الدولية[1]

(الحزب الاشتراكي الفرنسي)

٢٢ آذار ١٩٤٧

أكثر فأكثر تبرز الاشتراكيّة الفرنسيّة، **بالأفعال**، النزاع المذهبيّ الذي يفرّقها عن الشيوعيّة. فحول نقاط أساسيّة في سياسة فرنسة اختارت موقفاً محافظاً وتقليدياً. وهذا لا يعني أن الاشتراكيّة الفرنسيّة تعوزها نزعة التجديد. وما من أحد يتّهمها جدّياً بأنها عدوّة الديمقراطيّة.

ها إذن في فرنسة، على يسار أشدّ الأحزاب تطرّفاً في الديمقراطيّة الأصيلة، نرى الشيوعيّين يثورون.

لما قدّم السيّد راماديه حكومته **كمتضامنة** وطلب اعتمادات عسكريّة باسم هذه الحكومة **المتضامنة** أعرب الشيوعيّون عن نيّتهم بالامتناع. مع أن أشهر الشيوعيّين، وعلى رأسهم السيّد توريز، يشاركون في هذه الحكومة.

ثمّة تناقضات يعجز المنطق عن التسليم بها بصدق. وعلى المحازب، كما يبدو لنا، أن يختار بين قضيّة حزبه وقضيّة بلاده.

لا نزعم، في هذه المناسبة، إبداء رأي حول أزمة الهند الصينيّة، إنّما نلاحظ فقط هشاشة الائتلافات الحكوميّة حين تبلغ الخلافات المذهبيّة حدّ قانون الإيمان السياسيّ. لكم تلحّ الضرورة بفرنسة أن تجد لها توازناً أفضل!

---

١. S.F.I.O هي الحروف الأولى من اسم الحزب الاشتراكي الفرنسي (Section française de l'Internationale Ouvrière).

لن نُدهش لو نعت الشيوعيّون غداً الاشتراكيّين الفرنسيّين بالرجعيّين السافلين لأن الإيديولوجيّات المحمومة لا بدّ أن تؤدّي إلى هذه التجاوزات. فالثورة الفرنسيّة، لفرط ما صفّت من عناصر في صفوفها، جرّت إلى المقصلة، في النهاية، أعنف ممثّليها.

حين نُفرط في الشدّ نحو اليسار نجدنا، عند اكتمال دورة الدائرة، في اليمين.

إن عدم التساهل الذي يُبديه الشيوعيّون أنفسهم يكبح الآن من جماح الاشتراكيّة الفرنسيّة. وقد أصبح واضحاً أن السيد بلوم وأتباعه يعلمون أنّهم لا يستطيعون المضي إلى أبعد نحو اليسار بدون أن ينتحروا. ولن يكون بالتالي أمام فرنسة، في هذا الاتّجاه، إلا الهاوية.

أكثر ما يؤخذ على المذهب الشيوعيّ في فرنسة هو أنه تسوية أكثر مما هو عقيدة. فالأحداث ترغم الاشتراكيّين على اتّخاذ موقف.

في فرنسة، كما في إنكلترة، مع فارق الاختلاف في المناخات السياسيّة، تكتشف الاشتراكيّة، خطوة بعد خطوة، إمكاناتها وحدودها.

بعد ثلاثين سنة

٢٤ آذار ١٩٤٧

في موسكو صرّح السيد جورج بيدو إلى صحفيّين فرنسيّين بقوله: «**إن نظرتنا إلى النظام الإتّحادي بعيدة جداً عن المفهوم السوفياتي**». وبعد ثلاثين سنة من الشيوعيّة في روسية يبرز التباعد الكبير بين أحد المواقع الأساسيّة في المذهب الشيوعي وبين موقف الغرب الكلاسيكي كما كان عليه في اليوم الأوّل.

طوال ثلاثين سنة بذل الاتّحاد السوفياتي كلّ جهده ليبيّن إلى العالم النتائج الإيجابيّة التي أدّت إليها الماركسيّة الكاملة. وبعد ثلاثين سنة اضطرّ وزير خارجيّة فرنسة، وهو في موسكو عينها، أن يعترف بأن المسافة حول نقطة رئيسيّة، بين مفهومه لها والمفهوم السوفياتي، ما زالت كبيرة بحيث يمكن اعتبارها عقبة يستحيل تجاوزها.

منذ ثلاثين سنة بالضبط، تخلّى القيصر عن الحكم، وقد أدّت نظم الدوما[1] والأمير لڤوف وكيرنسكي بسرعة إلى عهد لينين.

ثلاثون سنة هي مدى حياة. فالروسيّ في سنّ الأربعين لا يعرف اليوم عن الماضي إلاّ ما علمه من الكتب أو من التقاليد. وطوال هذه المدّة التي تخلّلتها الثورة والحرب ظلّت روسية عالماً مغلقاً على كوكب الأرض.

١. المجلس التشريعي الروسيّ في عهد القيصر.

واضح الآن أن عزلة روسية لا يمكن أن تدوم ثلاثين سنة بعد. فالأمم يحقّ لها أن تعرف، بالتفصيل، كيفيّات التجربة ونتائجها. **ويمكن حتى القول إن هذا واجب حيال الإنسانيّة**. وأصبح من الضرورة الملحّة بالنسبة للروس أن يظهروا الاتّحاد السوفياتي من الداخل إذا أرادوا أن يقنعوا الغير.

هذه الحدود الحديديّة، هذه الحدود التي لا يقوى على تجاوزها إلاّ زوّار نادرون يوجَّهون ويراقبون خطوة خطوة، هل ستظلّ محظورة بلا نهاية، على عامّة الناس؟ فما شأن هذه المؤسّسة الغامضة لكي تفرض مثل هذا السرّ؟

أكيد، مع هذا، أن شيئاً ما في الشيوعيّة قد تغيّر وقد خفّ عدم التساهل الأوّلي في أكثر من مجال. وليس من يجهل أن في الاتّحاد السوفياتي الآن، شئنا أم أبينا، الكثير من عدم المساواة الشرعية وامتيازات وطبقات، وأن تحوّلات قد حصلت **فرضتها الطبيعة البشريّة**، وأن العقيدة ما حافظت على صفائها كما في السنين الأولى والجهود الأولى...

ذلك أن العامل البشريّ قد تداخل مذذاك بقوّة أشدّ من القانون وأن النظم الاجتماعيّة اضطرّت أن تتراجع أمام هشاشة الجسد.

كفى أن يُقال لنا إن المذهب الشيوعيّ الأصيل ما زال سليماً. لقد نال التيّار منه وما بقي منه إلاّ سياسة كيفيّة لا نمط حياة.

ما كان أهون قيام السلم في العالم لو تخلّى الاتّحاد السوفياتي بصدق عن تجاربه لدى الآخرين!

لو شرّع الاتّحاد السوفياتي كلّ أبوابه لكم كان تسنّى لأرض البشر أن تصبح من جديد أرض محبّة وإخاء!

حسب الأنبياء

٢ نيسان ١٩٤٧

هل الوقت الذي نصرفه في التأمّل بالحياة المقبلة نُسمّيه وقتاً ضائعاً؟ لو انحصر كل شيء بالحاضر فلماذا نعاني كلّ هذا التعب، لماذا الإرهاق في سباق عنيف؟

ليس التقليد الذي عفّى عليه الزمن ما يدفعنا إلى التفكير بالأحداث الخطيرة التي جرت قبل تسعة عشر قرناً في فلسطين ويعود بنا كلّ سنة إلى المسألة القديمة، إلى هذه الدعوى الخارقة التي أدّت بعد محاكمة خدّاعة إلى موت يسوع ورمز العدالة، بل بالعكس هي الرغبة الملحّة بالحقيقة التاريخيّة تدفعنا، هو نزوعنا الطبيعي، المشروع والضروري، إلى ما هو أبديّ ولامتناه.

«إن رجاء عظيماً قد اجتاز الأرض».

لا نتذكّر قط هذا الأمر أفضل ممّا نتذكّره هذا الأسبوع الربيعيّ الذي تسمّيه المسيحيّة أسبوعاً مقدّساً لأنه يعيد إلى الأذهان قمم الحقيقة والطهر والبطولة. حينئذ فقط، لساعات وجيزة، نتحرّر من هذا الزمنيّ الذي يتملّكنا ونتعلّق به، كما لو كان علينا أن نتملّكه دوماً. حينئذ تسمو أفكارنا، بظاهرة جماعيّة، لأننا نعلم أن نصف سكّان الأرض يمرّون بهذه الحالة النفسيّة أو هم يبحثون مع پاسكال «نائحين».

لولا هذا المستقبل الناشئ عن قيامة، لولا هذا الاحتفال السنويّ الذي

يذكّر، عبر الألم، بعودة حاسمة إلى الحياة، لسوّغت كلّ ضروب السويداء على أرضنا، ولكان كلّ تقدّم ماديّ باطلاً كمسيرة الساعات وقد لا يبلغ الإنسان سنّ الرشد إلاّ لكي يدرك أنه معرّض للشيخوخة وللموت.

الأمر يتعلّق، في الواقع، بقيامة، بحياة لا تنفد، بانتصار تامّ على المرض، على الألم، على الموت من خلال ذكرى تضحية تكفيريّة تجتاحنا حقيقة الفداء العجيبة.

إن في هذا ما يدعونا حقّاً إلى التفكير والتأثّر والتحمّس. وليس عن عبث نلقي جانباً، هذه الأيّام، بالمشاغل اليوميّة لنتأمّل بالتدخّل الإلهيّ المباشر في شؤون العالم.

لولا مثائل الإيمان والرجاء هل كان في دنيانا إلا بؤساء وثائرون؟

الملكيّة والديمقراطيّة

٣ نيسان ١٩٤٧

في الطرفين الجنوبيّين من أوروبة: في إسبانية وفي اليونان، يثير مبدأ النظام الملكي جدالاً عنيفاً. في إسبانية، حيث اختار فرانكو، بصورة غريبة، الملكيّة بلا ملك، على الأقلّ في الوقت الحاضر، وفي اليونان حيث الملك جورج لقي حتفه، تاركاً لخليفته، بعد جهد مشكور، وضعاً معقّداً محفوفاً بالشراك.

إن بلدان شمالي أوروبّة هي التي لقّنت الديمقراطيّة للغرب وللعالم في الأزمنة الحديثة. وهي التي تحرص كلّ الحرص على النظام الملكيّ لديها وتمارس، في الوقت عينه، أشدّ الاشتراكيّات تقدّماً.

بينما إسبانية واليونان يجتازان أزمة نظام حكم وتبدو للبعض الفكرة الديمقراطيّة فيهما متعارضة مع النظام الملكيّ، فإن إنكلترة وهولندة وبلجيكا واللوكسمبورغ والدانمرك والنروج وأسوج تستمرّ كلّها متعلّقة كل التعلّق بالسلالة الملكيّة.

والقضيّة على ما يظهر هي، قبل أي شيء آخر، قضيّة ذهنيّة ومناخ ثم قضيّة بصيرة وطبع وميزات خلقية.

لئن كانت الأنظمة الملكيّة ما تزال خيّرة وتحظى بشعبيّة بارزة في البلدان الشماليّة، فلماذا ما عاد الآخرون يريدونها؟ ولئن كانت الملكيّة تتوافق، كما هو جليّ، مع الديمقراطيّة في هذه البلدان، فلماذا لا تكون كذلك في

سائر البلدان؟

المفارقة ساطعة في هذا السياق. هي توضح حالة ذهنيّة وحالة نفسية في الوقت عينه.

إذا بلد أوروبيّ كبير معيّن عاد لا يريد سلطة ملك فذلك بحجّة المساواة الخدّاعة. أمّا إنكلترة فتكرّس طوعاً اللامساواة، المادّية فقط، في هذا المجال. إنها تميّز عائلة عن سائر العائلات لتعهد إليها بمسؤوليات معنويّة وتجعل منها بصورة دائمة رمزاً وصلة.

إن المواطن البريطاني، رغم أنه من أتباع الملك، يعرف كيف يحافظ، حتى في البؤس، على وقار ملوكيّ، كما كان المواطن الروماني في الماضي البعيد. بينما المساواة الظاهرة، المساواة **الفوضويّة**، تؤدّي عند آخرين إلى هبوط شامل.

غالباً ما نرى، في هذا القرن، مفهوماً وهميّاً مبلبلاً للحياة. يريد بعضهم أن **تكون لجميع الناس ذات الأذواق والميزات**. وهذا غير طبيعي. هم يرفضون لإسبانية وينكرون على اليونان ما يثير إعجابهم في إنكلترة وأسوج.

والفرنسيّ المعارض المتمرّد الهازئ يهتف بطيبة خاطر «فلتحيا الملكة!» في باريس حين تكون الملكة ملكة هولندة.

على سبيل الإنصاف نضيف أن إنكلترة الملكيّة رغبت دوماً بالجمهوريّة عند الذين لا يناسبهم النظام الجمهوريّ، ظنّاً منها أنها تضعفهم هكذا، ولعلّها تأسف اليوم لأنها أضعفتهم أكثر ممّا يجب.

ثمّة شعوب تناسبها الجمهوريّة وغيرها ينبغي لها ملك (على النموذج الإنكليزيّ).

أما الظالم، متوّجاً كان أم من عامّة الشعب، فما من بلد عاد يُريده.

الحقيقة التي تُنقذ

الجمعة الحزينة ١٩٤٧

لن نتساءل كبيلاطس «ما هي الحقيقة؟» كما لو الحقيقة التي قدّمت لها أعظم الشهادات في اليوم الفاجع، ما كانت وحدها الجديرة بالاهتمام والاعتبار.

إن الحياة والحقيقة تختلطان في أصلهما البعيد ومصدرهما. فالحقيقة لا تنفصل عن الحياة. والموكب الحافل بالصور الخادعة والباطلة ونظريّة الأحلام والأوهام المذهّبة وجميع الآلهة الزائفون، آلهة مصر وصور وآسية بأسرها، والأولمب وروما ما هدفت إلاّ الى طمس الحقيقة.

فهذه الأمجاد العابرة وهذه الأخطاء المفعمة بالإغراء ما كانت قطّ إلاّ ظلمات أمام النور.

حين واجه ابن الإنسان بيلاطس بقوله: «خُلقت لهذا. وجئت إلى العالم لهذا: لكي أشهد على الحقيقة»، طرح القائد الرومانيّ على نفسه سؤال المتشكّك المرير: ما هي الحقيقة؟

إن لم يجعل هذا العصر همّه الأوّل البحث عن الحقيقة يكون قد أفلس رغم اكتشافاته الباهرة.

إذا كنّا لا نتنفّس ولا ننشر أفكارنا إلا هرباً من الحقيقة، فلسنا جديرين حقّاً بأن نعيش. لأن العدالة كلّها، بلا الحقيقة، لن تكون إلاّ مكراً ووهماً.

خلال تعاقب الفصول ومرور السنين ثمّة ساعات خطيرة تعود فتجعل البشريّة منها منارات تكشح عتمة الليل.

وها اليوم، لكثير من البشر والشعوب، إحدى هذه الساعات التي تثير أكثر ممّا عداها، بالذكرى المذهلة التي تجدّدها هذه الشهادة الفريدة على الحقيقة الدامغة، السامية، بحيث لا يقوى أيّ إنسان ألا يبالي بها أو ان يختلق عذراً لتجاهلها.

قيامة

٦ نيسان ١٩٤٧

هل يسعنا يوم الفصح ألا نتحدّث عن القيامة؟

جميع الأحياء من البشر، سواء تمسّكوا بها أو ابتعدوا عنها، يعيشون على هذا الرجاء. فأيّاً يكن إيمانهم هم ينظرون إلى ما وراء الموت. وتعشّق الحياة قويّ لحدّ بأنه جعل حتى الأمم التي تشيخ تناضل في سبيل تجديد صباها.

وراء مظاهر الموت كلّ شيء يكشف لنا عن حياة متينة، عن شعلة لا تنطفئ، عن ربيع بهيّ.

ثمّة عظمة هي آخر حالة من حالات الشفافيّة اللامتناهية تختفي وراء ما يتفكّك.

وسط الطبيعة التي تحيا من جديد، لماذا الإنسان، وهو مليكها وهو فكر وعقل لا يضمن عبور الموت منتصراً؟

لو كلّ منّا هبط إلى عمق ضميره ألاّ يشعر أن في ذاته شيئاً حيّاً نهائيّاً؟ روحانيّة لا ينال منها أي انحلال؟

النفس، في الإنسان، هي ذلك العنصر الثابت، هذا الشكل السامي لحياة واعية تعرف أنها تحيا وتحلّل وتفهم ذاتها وتواصل صعودها على الدروب الخالدة. يريد بعضهم، بغرابة أطواره، أنه لا يعود لحكومات عصرنا أن تعلّم هذه الأمور وأنه عليها باسم حرّية فرديّة، أن تلتزم

اللامبالاة... ويا له من موقف غريب حيال أوسع الآفاق، حيال أنبل الأهواء، حيال أضمن عناصر الحياة الاجتماعية! وهذا لعمري سبب زوال حكومات وشعوب كثيرة.

لا يمكن أن يقاد شعب قيادة حكيمة إذا وضع أمامه الموت فقط في نهاية مصيره. ليست عقيدة القيامة مجرّد حقيقة بل نمط حياة.

حول خطب الجنرال ديغول

١١ نيسان ١٩٤٧

من مفارقات هذا الزمن أن يكون قد جرى جدل، بإشراف الجنرال ديغول، حول دستور فرنسة الجديد بعد انقضاء أشهر قليلة على تطبيقه. وكان لا بدّ لمثل هذا، في الماضي، من سنوات اختبار وتفكير.

لكنّ الوقت يداهم. وأوروبّة في جميع أقسامها، مريضة. والخمائر التي تعتمل فيها اشتدّت بحيث قد تولّد في كلّ لحظة الشقاق والثورة.

لو عقدنا العزم على مواجهة المعضلات المطروحة لتبيّن لنا أن المنطق يكاد ينهار في كلّ مكان. ففي معظم البلدان الأوروبيّة لا يكاد يعرف الناس ماذا يريدون. ثمّة نزعات مبهمة ومختلفة، كانت موضوع مساومات، دفعت بحكومات ضعيفة إلى تولّي الحكم بدون وحدة عقيدة وبلا هدف.

وكان الهمّ يقتصر على العيش كلّ يوم بيومه ريثما يذلّل القدر المحتوم المصاعب ويكشف عن المجاهيل.

وبات معلوماً أن هذا الوضع لا يمكنه أن يستمرّ.

إن في الموقف الذي اتّخذه الجنرال ديغول تعبيراً عن الحمّى التي تجتاح أوروبّة. ويكون مجنوناً من يجهل أن ما تعانيه أوروبّة لا بدّ أن تصيب عدواه الدنيا بأسرها.

إنها قضيّة ثلاثماية مليون أوروبّي على المحكّ. أي أشدّ كتل العرق الأبيض تماسكاً وأفضلها بناء وأكثرها تململاً، وعلى صعيد الأفكار أقواها.

لكن الفوضى اجتاحت هذه الأدمغة وهذه الأفكار، فقادت ثلاثماية مليون نسمة إلى عماية جماعيّة.

ذلك أن أوروبّة ما حزمت أمرها بعدُ لكي ترى أن عليها أن تقرّب بين البشر قبل أن تجابه مذاهب. وإن كلّ تفسير سياسيّ لهذا الزمن هو مرض غنيّ بالمفاجآت الفاجعة يرغم أبرز ممثّلي الحضارة الغربيّة على التأرجح بين الحياة والموت.

هذه المشاغل تقرأ بين سطور خطب الجنرال ديغول الأخيرة. لكنّ الجنرال ديغول يظلّ أسير طبيعته الخاصّة، أسير أفكاره المتشامخة، أسير عصبيّة وطنيّة قد يقال عنها غير إنسانيّة.

يصعب على الجنرال ديغول توحيد الفرنسيّين فكيف جمع شمل الأوروبيّين. لأنه، بطبعه، ينزع إلى الحكم الفرديّ والهيمنة لا إلى إزالة التوتّر والتوحيد الأخويّ.

إن اللبنانيّين يتتبّعون، باهتمامهم المعهود، تطوّر السياسة الفرنسيّة. وكان يسعدهم أن يبصروا تصحيحاً للخلاص العامّ يشارك في وضعه كلّ الأحزاب الفرنسيّة بعيداً عن الإيديولوجيّات العقيمة ولا يهدف إلاّ إلى إنقاذ فرنسة وأوروبّة.

حول خطابين

١٥ نيسان ١٩٤٧

حين استقبل فرنسوا مورياك پول كلوديل في الأكاديميّة الفرنسيّة، تصوّرنا نورين، نوراً صباحيّاً ونوراً قبل منتصف الليل، يتقدّم أحدهما نحو الأخر، كما في عناق بين الإيمان والحبّ في غمرة البلبلة الأرضيّة التي تطغى على المقدّسات والدنيويّات.

إن الدرب الذي يصل بين أبطال مورياك وأبطال كلوديل، نجده، قبل رامبو، عند بودلير في «الفجر الروحيّ». «بفعل سرّ منتقم؟ ...».

ما تسنّى لنا إلا في هذه الأيّام أن نقرأ هذه الصفحات العظيمة المؤثّرة. فصدى هذين الخطابين تجاوز هذه المرّة الآداب وموسيقاها وأنبل قواعد الفنّ وسحر الكلمات، والتعبير الدقيق عن الأفكار. ولم نرَ بعد مثل أفعال الرجاء والإيمان هذه تلتقي، كما في صدمة تفوق الطبيعة وفي لغة تميّزت بمثل هذا التجرّد.

هل سبق للكنيسة المناضلة أن تلقّت مثل هذه الشهادة في ساعة لها هذا الدويّ، في مناسبة مهيبة كهذه، يؤدّيها علمانيّان يتمتّعان بهذا القدر من الفطنة والمعرفة؟

كلوديل ومورياك جيلان يتعجّلان السير نحو نهاية المطاف وجهان للمنطق وللروحانيّة راسخان بقوّة، أحدهما في «الكتاب المقدّس»، باستعاراته الرائعة وأناشيده، والآخر بالجسد المغلوب وقد وقع في التجربة

والخطيئة فأنقذته التضحية.

هذا اللقاء دمغ عصراً، صالح مع زمن ضارّ عادلت خيباته وعود فلاسفته الجافّة.

لقد اهتزّت مشاعرنا بعد قراءة هذه الصفحات التي كاد ينتفي منها التصنّع اهتزازاً جعلنا لا نبتغي إلاّ أن نغمر رأسنا بيدينا ونغوص في اللامنظور الكاسح.

قال كلوديل: «**يطيب لرجل لن يطول به الزمن حتى ويخلي ساحته لذكراه أن يقرأ في العيون التي تحوطه غير الريبة والدهشة واللامبالاة**».

وأجابه مورياك: «**كثيرون من الأموات والأحياء يلحّون عليّ لكي أحدّثك كما لو كنّا وحدنا أنت وأنا**».

قلّما تسنّى لهذا القرن أن يسمع مثل سقسقة هذه المسارّات تحت القبّة الشهيرة، على ضفاف نهر السين. أين الحذلقات ومظاهر المجد الباطلة، الثقيلة الوقع، وتأنيبات الخالدين[١] الموجّهة إلى أولئك الذين تجاسروا وطلبوا لهم، بدورهم، الخلود؟ أين استقبالات الفرنسيّين البارزين الكثُر طوال السنين التي أساءت خلالها عبارة «الريع» و«التقدّم» إلى تراث فرنسة.

كان لا بدّ من نفي جماعيّ لفلسفات النور[٢]، ومن عصر النُظم الماركسيّة الكليّة الاجتماعية، ومن وحشية البشريّة تجاه ما حملت أحشاؤها ثم هبوطها الى مستوى البهيمة حسب تعليم جدلية جهنميّة، كان لا بدّ من كل هذا لإثارة مثل هذا التعبير الرائع عن الروحانيّة.

في خطاب كلوديل، كما في خطاب مورياك، حتّى في المقاطع التي قد تشابه التقريظ أو التوبيخ، إشادة هادئة باليقين وصلته باللانهاية.

شاعران بالسليقة كلاهما، واحدٌ ينطلق من فصل «الخلق» في سفر التكوين، والآخر من فصل «الفردوس المفقود». كلوديل يكبُّ على الفداء

١. Immortels: نعت يطلق على أعضاء الأكاديمية الفرنسيّة.

٢. Lumière: عصر النور في فرنسة.

ومورياك على مياه الخطيئة العكِرة، سمعنا صوتيهما الشبيهين بأصوات الأنبياء.

حسبُ فرنسة جلسة ١٣ آذار الماضي في الأكاديمية الفرنسيّة لكي تستحقّ أن تفرض نفسها أكثر من ذي قبل على احترام العالم وعطفه.

التناقض الذي يقتل

١٧ نيسان ١٩٤٧

يبدو أنّ الحاجة أمُّ البلاغة. فالجنرال ديغول، وهو يتأمّل في حقوق الوطن السامية والمخاطر التي تهدّدها، وجد كعادته عبارات مُثقلة بالفكر ونبرات مؤثّرة. وها رئيس الجمهوريّة الفرنسية بدوره يستعين بمزايا شبيهة جداً بالمزايا اللاهوتية فيتلفّظ بكلمات جميلة. «لكي نحلّ جميع معضلاتنا علينا أوّلاً أن نتّكل على أنفسنا». **هكذا قال حول العمل والصبر والتعقّل والتضامن والإيمان بالمصير والإيمان الحارّ بالوطن ومستقبله كإيمان بناة الكاتدرائيّات».**

يا له من كلام نبيل! ولكن ألا ينبغي التفاهم أولاً حول معنى ايمان بناة الكاتدرائيّات هؤلاء الذين جاؤوا بروائع تكاد تكون خارقة الطبيعة هي نتيجة أعمال بطيئة وصبورة وكانوا ينحتون الحجر بحبّ في سبيل الخلود.

يبدأون بالتشكّك بأعمق إيمان تحلّى به بلدٌ ما وينتقصون عمداً من ماضيه ومعتقداته وتقاليده وملوكه. وينسبون الجهل والتعصّب الى أخصب العصور وأغناها بالعبقريات في تاريخها ويدخلون في تعليمهم، بحجة عدم التحيّز، أشدّ مظاهر اللامبالاة والتحزّب ثم يطلبون الى المواطن، بعد كل هذا، أن يتصرّف تصرّف البُناة الذين شيّدوا كاتدرائيّات شارتر ورمِس ونوتردام في باريس وفي ستراسبورغ.

ثمّة مفارقة غريبة ظهرت منذ زمن بعيد في حياة فرنسة السياسيّة

والاجتماعيّة. وها هي هذه المفارقة، في نتائجها، تبرز أشدّ عنفاً من أي وقت مضى فيشعرون بها ويقولون من كل جانب: **لايمكن الإبقاء على الايمان حين يُقضى على الرجاء**. ويحلّ محلّ المحبّة التي هي عمل متجرّد، وبذل الذات، الحقد القبيح الذي يولّدونه فينمو.

إن أوروبة الغربيّة تُعلن من كلّ جهة عن توقها الممزّق الى نهوض، لأن حيويّتها تنزف من مئات الجراح. ولكن حين يشتدّ عليها خطر الغرق في الهاوية العائمة، تحدث انتفاضة في عواصمها، وها قد جاء الآن دَور باريس.

سواء أكان الوقت مناسباً أم لا، فلا بدّ من طرح المسألة على بساط البحث. لكن الفساد والبؤس، وقد عمّا، اتّخذا حجم البداهة.

إن السيّد ڤنسان أوريول والجنرال ديغول، بالرغم من خلافهما حول الأساليب، متّفقان حول الأساس. وكلاهما يبحثان عن بناة كاتدرائيّات، فهل من يفكّر حقّاً باختيار أناس بهذا الوزن بين أولئك الذين يَرَون في الكاتدرائيّات رمز جهالة وموت؟

أميركة في الشرق

١٩ نيسان ١٩٤٧

ان السياسة الأميركية، العالميّة الأهميّة، التي تُمارس حول مسألة الشرق الجديدة تواكبها أحداث تزداد مهابة، كما يقال اليوم.

لقد أُعلن أن أسطولاً أميركياً سيرسو في مرفأ اسطنبول. ويا ما أجمل منظره من شواطئ قرن الذهب!

ما أبعدنا اليوم عن حرب القرم! مع أنه ما مرّت عليها بعد مئة سنة. حينذّاك ما كانت ألمانية بعد ولا إيطالية. وقد هبّت فرنسة نابوليون الثالث وانكلترة الملكة فكتوريا لنجدة السلطان ترافقهما **مُقاطعة البيامون**[1]. وكانت تركية، بالنسبة للولايات المتّحدة حينذاك، كالصين بالنسبة للمرسلين المندفعين. لكن الزمن تغيّر اليوم.

تتقدّم أميركة بعظمة على جميع الدول الكبرى في الغرب الأوروبيّ. فالولايات المتّحدة المركّبة من جميع شعوب العالم تعرض نفسها على أوروبّة «ذات السُتَر القديمة» كباعثة النشاط في كلّ شيء. وتنبئنا البرقيّات بأنّ المحادثات في موسكو تزداد عسراً وسريّة.

في نهاية الأسبوع الماضي طلب الجنرال مارشال أن يقابل الماريشال ستالين لكنّه ما تلقّى الدعوة الاّ بعد ظهر الأربعاء، لأن الماريشال ستالين

١. Le Piémont.

كان كعادته منهمكاً جداً. وما علمنا الاّ مدّة هذا الحوار وأسماء الاشخاص الحاضرين وهم روسيّان، ستالين ومولوتوف، وأميركيّان، مارشال وسفير الولايات المتّحدة ومُترجمان.

في هذه اللحظة الخطَيرة أعلن، على سبيل التسلية، عن زيارة الأسطول الأميركي لاسطنبول.

جرى كلّ هذا كما لو ان، لفترة ما، ما بقي في الساحة إلاّ دولتان عظيمتان. ودار الحديث كما في الماضي بين نابوليون واسكندر، لكنّ هذه المرّة ما كانت إنكلترة بجانب اسكندر. وأسياد البحر القدماء والجُدد، ضاقوا ذرعاً بالصيغة السياسيّة الحديثة وبالشيوعيّة التي اعتمدها الاتّحاد السوڤياتي في «الحصار البرّي».

وعاود التاريخ نفسه. فالنزاعات هي عينها وإن تغيّر الخصوم. وعلى مستوى أوسع تتّخذ الأمم الرئيسة، آلياً، المواقف عينها ولن تختلف النتائج كثيراً.

وهذا لا يدعونا لأن نفكّر، لا سمح الله، بأن المأساة وشيكة الوقوع. ولن نذهب في تصوّرنا الى هذا الحدّ. لكنّ من الواضح إن موقفين متصلّبين يتواجهان ولن تستمرّ الحال هكذا طوال جيل كامل.

شموليّة وديمقراطيّة

٢٣ نيسان ١٩٤٧

لطالما سمعنا هذه اللغة بين سنتي ١٩٣٩ و١٩٤٥ بحيث بات يدهشنا أن لا نزال نسمعها: «على الشعوب أن تختار بين الشموليّة (التوتاليتاريّة) والديمقراطيّة».

هو الرئيس ترومان من قال هذا مؤخّراً: «فهل الحرب ما انتهت بعد، الحرب الرهيبة الطويلة في سبيل احترام كرامة الشخص البشريّ والحرّية».

لكي يتكلّم الرئيس ترومان ويتصرّف، كما يفعل منذ بعض الوقت، لا بدّ أن يكون رأى الحريّة معرّضة للخطر وأن قوى مريعة تهدّد العالم.

كم تعلّق العالم بأوهام بين سنتي ١٩٣٩ و١٩٤٥؟ كان بوسعنا ان نتصوّر حينذاك أن لاشمولية بجانب المدافعين عن الحقّ وأن كلّ العدالة هي، من جهة، وكلّ الظلم، من الجهة الأخرى.

في الواقع، كان لا بدّ لكسب الحرب، من أن تُقبَل وتُمارسَ الحكومات والأمُ انتهازيّة لا تُصدّق. ونتحقّق الآن، مرة أخرى، من نسبيّة الحقيقة والضلال والى أي حدّ تستطيع المصلحة أن تولّد من أوهام وتخفي الواقع.

إن اجتماعات السياسيّين التي نحضرها كما المؤتمرات وحتى مؤتمرات منظّمة الأمم المتّحدة التي هدفها الأوّل تحسين العلاقات الدولية وتوفير السلام، كلّها عجزت عن التقريب بين المذاهب وكلّ ما توصّلت اليه هو حَمل المحاورين على أن يخطو كل منهم خطوة باتّجاه الغير لأن لا أحد عاد

يفكّر في التوفيق بينهم.

شموليّة، ديمقراطية، هما، في المجرّد، لفظتان براهما فرط الاستعمال، أوّلاهما قاسية والأخرى بدون وجه، الأولى توحي بالإكراه وبالعصا، والثانية بزعزعة النُظم. يا لهما من نظريّتين عرقلتا، في كل مكان، مسار الزمن وقلبتا التقاليد رأساً على عقب!

لماذا لا يريدون أن يتّبع الناس ناموس طبيعتهم، وأن يُحكموا بطرق تختلف حسب أهليّاتهم ونزعاتهم العقلية واحترام نسبي للماضي؟

في الحقيقة ليست الشموليّة ولا الديمقراطيّة النظرية هما اللتان سيخربان الأرض بتجاوزاتهما، **بل الرغبة المستقرّة المبطنة بالتساوي في كل شيء وبوضع كلّ شيء في نسق واحد وبجعل الإنسان قطعة غيار عالميّة في تطبيق فظّ للمخطّطات السياسيّة والاجتماعيّة وفي إنماء المشاريع.**

هنا تكمن المأساة. بيد أن من الواضح أنه اذا اتّفق للديمقراطيّة أن تسيء الى الشخص البشريّ فإن الشموليّة تقضي عليه حتى اذا أطلق صرخة أُخمدت أنفاسه.

كيفما تناولنا هذا الوضع رأينا ان النُخَب هي التي ينال منها الشجار. ولكن فيما يتسنّى للكثيرين في الديمقراطية المعقولة ان يُبرزوا فإن الجميع يهلكون، في الشموليّة، على المدى البعيد، حيث يظهر، كالمسخ، رجل واحد معرّضٌ طبعاً للخطأ وللمرض فيصبح سيّد كلّ الآخرين.

حرب طروادة لن تقع

٢٤ نيسان ١٩٤٧

قال السيد والاس[١] إن العالم لا يقوى على احتمال حرب أخرى. وهذا من البديهيّات التي لا تحتاج الى برهان. اذ تكاد كلّ الشعوب تشبه أولئك العرجان الذين رجعوا من المواقع الكبرى وقد فقدوا نصف أعضائهم وشوّهت النُدب وجوههم.

ليسَ فقط لا يقوى العالم على شنّ الحرب، بل هو يتوق الى راحة طويلة، يُريد على الأقلّ أن يتنفّس بعد المحنة الرهيبة وينصرف مطمئناً الى بعض ملذّات القلب والعقل التي هي زينة الحضارات.

ما من أحد يجهل ما يصيبنا حين يتدخّل الشيطان في شؤوننا، حين تتضاعف المصاعب الى حدّ تبدو معه متعذّرة الحلّ، حين يستولي علينا الغضب واليأس.

في الظاهر لا يقوى العالم على احتمال حرب أخرى، لكن ما نكابده لا يطابق دائماً ما نستطيع احتماله.

لئن كانت للقوى البشريّة حدود، فإن لدى الإنسان أيضاً من قوى التكيّف والمقاومة ما يتجاوز الطاقة البشريّة، وما يفوق إدراكنا. وهذا يفسّر كيف أن الأرض ما كانت في أي حقبة من تاريخها وما قبل تاريخها مأهولة

(١) إشارة الى البريطاني ريتشار والاس الذي زوّد باريس بخمسين عين لمياه الشرب.

كما هي اليوم، رغم كثرة المصائب والأوبئة والكوارث وأنواع الدمار التي حلّت بها.

إنّ ما يجري الآن في العالم يُقارن قليلاً بمسرحيّة جيرودو «حرب طراودة لن تقع» التي شهدتها بيروت منذ حين. ولا شكّ أن الحرب لا يجب أن تقع. فالمشاعر والبراهين والمخاوف ووسائل الحذر، التي لا تُعدّ، تحاول منعها وتجهد في هذا السبيل. لكنّنا نعلم أنه قد تأتي ساعة يضيّع فيه أبطال المأساة رؤوسهم فيقضي القدر على كل شيء؟

لئن قُيِّضَ للعالم أن يتحمّل الحرب أكثر مما تحمل لكان بمقدوره أكثر أن يحول دونها. وليس في هذا مفارقة. ذلك أن الأيدي المتعبة والمستضعفة هي التي تقود الدفّة وتتحكّم بالمستقبل.

إننا نشهد انحرافاً يكاد يكون شاملاً، ومهما يُروى فإن الحرب قد تنشأ عن وهن الإرادات ونفاذ الصبر.

بوجه القوى الخطيرة حيثما كانت يجدر بنا أن نُظهر طاقتنا على شنّ الحرب بدل أن نقول إننا لا نقوى على احتمالها.

ليس من الأكيد قطّ أن السيّد والاس في تحرّكه هذا (وقد أصبح ينبوع والاس) يعمل لأجل السلم.

العودة من موسكو

أوّل آيّار ١٩٤٧

بين المعضلات الكثيرة العالقة والتي تُشغل الأمم واحدة تبرزُ على كلّ ما عداها. انها علاقات الاتّحاد السوفياتي مع الانكلوساكسون أولاً ثم مع سائر العالم.

فالمحادثات التي دامت أسابيع عدّة في موسكو ما أدّت الا الى كلام استسلام وانتظار. كلام مُسكّن يحمل طابع الفشل، رغم اتّسامه بالطيبة وانطوائه على النغم العاطفيّ.

«**إن الزمن الذي يغيّر كل شيء يغيّر أمزجتنا أيضاً**» لقد قيل دائماً عن الزمن إنه إنسان ملاطف، فهل بقي هكذا؟ فستالين الذي قلّما تعنيه الملاطفة يعتمد بالأحرى على الملل. ولكن هل ستذلّل كلّ هذه المصاعب من تلقائها بفعل المطر والشمس والريح؟

يبدو هذه المرّة أن تقدّم الأحداث ناشئ من جهة عن إرادة هي من الصلابة بحيث لا تشاء أن تترك شيئاً للقدر. فأميركة تتقدّم، كما على ساحة قتال، لكي تحتلّ سلسلة مواقع تراها ضروريّة والخُطى التي قطعتها حتى الآن تدلّ على أنها لن تتراجع.

ثمّة أوراق رابحة في اللعبة السياسيّة ومسائل تمليها المناسبات وظروف مؤاتية. إنه الشوط الأشدّ حسماً بلعبة الشطرنج وفي كل زمان.

يظنّ كبار المحاورين، كلّ بدوره، أن اعراض ضعف داخليّ قد تظهر

عند الخصم وأن حرباً أهليّة او أي شكل آخر من البلبلة أقلّ وحشيّة قد يُجنّب الحرب الأجنبيّة. . .

بيد أن أميركة تتخطّى الحسابات المظلمة وتتصرّف كما لم تفعل قط في زمن السلم منذ أن دخلت في التاريخ. فما عاد شأنها أن تنتظر وترى، بل قرّرت أن تسجّل نقاطاً وهي ماضية في هذا السبيل منذ ستة أشهر.

لا بدّ في النهاية إذن ان يجري الوفاق أو أن يظهر الخلاف، لأن بعض المصاعب لا تستطيع الانتظار.

سياسياً، تتّخذ أميركة موقفاً هجومياً. فهي ما عهدت بشؤونها الخارجية الى قائد عسكري طبيعيّ بوجه حشد الماريشالات هذا لكي تنعم النظر فقط بمشهد طبيعيّ.

اليابان المهزومة

٥ أيّار ١٩٤٧

رغمَ صعوبة الحصول على المعلومات وقلّة الأنباء المتعلّقة باليابان حاليّاً، فكلّ الدلائل تشير الى أن اليابانيّين المنهزمين يتصرّفون كشعب عظيم.

كان يُفترض أن تكون للهزيمة في اليابان أشدّ العواقب النفسيّة وأن تُخلّف أفظع الآلام. يكفي ان نتخيّل سقوط اليابان العموديّ والمأساة المعنويّة والماديّة التي هبطت بها من ذُرى عنفوانها ومزاياها الوطنيّة الى قاع الهاوية. إنّ في بلد من تقاليده بقرُ البطن إنقاذاً للشرف كنّا نتوقّع عدداً هائلاً من مثل هذه التضحيات. ولم يتسنَّ لنا أن نعرف أي رقم للمنتحرين ولكنّ الحكومة اليابانية، كما يبدو، جعلت الشعب، ولو بصورة ضمنيّة، يمارس أساليب مخالفة لخلاص الأمّة. فأي فائدة تجنى من مذبحة مواطنين تميّزوا بشجاعة فائقة وحماسة بالغة؟

لقد أُعلن أن اليابان تلقّت دستوراً جديداً «ديمقراطياً» بالطبع، وراح الخطباء ينشرونه في الشوارع لكي تألفه الجماهير. انها طريقة لا تخلو من التأثير الأميركيّ وتنمّ عن حصافة معاوني الجنرال ماك آرثور إن كانوا هم أصحاب هذه الفكرة. وقد ننسى أحياناً أن الجنرال ماك آرثور يحكم اليابان ميكادو أعلى وأن امبراطور اليابان تحوّل الى صلة وصل بين الشعب الياباني والجنرال الأميركيّ.

بلغنا بالأمس خبر آخر هو أن العَلَم الياباني عاد يُرفرف من جديد فوق

المباني العامّة. وهكذا، كمن كابوس، راحت أمبراطورية الشمس تخرج رُويداً رويداً من عتمة الليل، وعادت الأسطوانة الحمراء على خلفيّة بيضاء تظهر في آفاقها. ولكن لا شكّ أن في قرارة أفكار شعبها، تتأجج صراعات غريبة بين الرجاء والحقد.

أن أعنف مأساة داخليّة عرفها الشرق الأقصى تجري على مستوى طوكيو ولا بدّ ان يعالج هولها مسرحيّو اليابان وشعراؤها في المستقبل.

ولا شكّ أيضاً أن أميركة تُهيّئ ليابان الغد مشاريع نافعة ستوضّح شيئاً فشيئاً. وستعود على الستّين مليون من اليابانيين المكردسين كالأسماك في البرميل، في مجموعة جزرهم البركانية الضيقة، بما يخفّف من وطأة بؤسهم الهائل.

ولا عجب، فقد صار انقلاب التحالفات أمراً شائعاً في هذا العالم ...

لغة الإخلاص للوطن

٤ آيّار ١٩٤٧

رغم مرور ثلاثة او أربعة أسابيع على الكلمات المأثورة التي قالها السيد هيو دالتون، وزير ماليّة إنكلترة، عند عرض موازنته، لا نرى أنه فات الأوان للتعليق عليها.

إن عرض الموازنة على مجلس العموم في انكلترة يشكّل حدثاً. يمضي الوزير في تلاوة البنود أمام أنظار متفحّصة وأحياناً وسط تصفيق الجمهور. يغادر مقرّه الرسميّ، وهو بيت قديم من الأجرّ غير زاه، على خطوتين من مقرّ رئيس الوزراء، في زاوية شارع هادئ يبدو قرويّاً (رغم وجود مركز وزارة الخارجية فيه) وينتهي إلى متنزّه فسيح، رائع الاخضرار. ثم يتوجّه الى البرلمان في تمام الوقت الذي تعلنه الساعة الجدارية الضخمة.

بعد أن أتمّ السيّد دالتون هذه السنة الطقوس التقليديّة، للمرّة الثالثة منذ تولّي حزب العمّال الحكم، تحدّث عن مصاعب إنكلترة الماليّة وآمالها. وفي الكلام عن المال ارتفع وزير المالية البريطانيّ إلى أسمى مستويات النتاج العقليّ والخلقيّ.

قال السيد دالتون: **ينبغي علينا إمّا أن نصدّر أكثر مما نُصدّر أو أن نستورد أقلّ ممّا نستورد، أو أن نحقّق الأمرين معاً. مستورداتنا تشمل كمّيات كبيرة من الموادّ الغذائية والتبغ والمواد الأوّلية، كالقطن والصوف والجلود والخشب. فإن شئنا تخفيض مستورداتنا فهذا يعني، بكلّ بساطة، أن علينا أن نقلّل من**

الأكل والتدخين والملابس والأحذية وأن نكتفي بعدد أقل من **بيوت السكن والمفروشات وبالتالي نخفض العمل** في صناعات عدّة. وبتعبير آخر يكون علينا أن **نلتزم نمط حياة أدنى مستوى** فتزداد البطالة. وهذا خطر يجب تلافيه. **ولن أخفي عليكم شيئاً من مسألة تعنينا جميعنا**. قال كروموبل مرّة إلى كتيبة خيّالته **المعروفين بالرجال الحديديين**: «**بلغ الخطر الحدّ** الذي رأيتموه وأدرك أنه حقاً خطر جسيم لكني **آمل أن لا يثير فيكم أي إحباط** كما أعتقد حقاً أنه لن يثير إحباطاً قطّ لأننا انكليز». واضاف **السيد دالتون**: «**لقد لجأ كروموبل** إلى هذه الكلمات الخالدة. وبعد موقعة ضارية **انتصر الرجال الحديديون وهكذا نحن فاعلون. ينبغي على هذه الجزيرة الصغيرة** المكتظّة بالسكّان **والمُرهقة أن تصدّر أكثر وإلاّ كان مصيرنا الهلاك**».

ما من رومانيّ (ولا ميرابو) تلفّظ بعبارات أشدّ حزماً وتأثيراً.

لئن ذكّرنا بهذا الموقف وبهذا الإخلاص للوطن وبهذه الشجاعة فلكي تكون عبرة لنا وللعالم كلّه.

فيما بلادنا مقبلة الآن على انتخابات، يجدر بنا أن نفكّر بإعجاب في الظروف التي أوحت إلى السيّد دالتون بهذا الكلام وينبغي بالتأكيد أن نقول في سرّنا إن مشاكلنا الصغيرة ونزاعاتنا الصغيرة تتضاءل وتشحب أمام خطورة المأساة التي تعانيها حالياً أعظم الدول.

إن لبنان ليفخر بترديد صدى كلمات السيّد هيو دالتون. وقد فهمناها فعملنا بموجبها.

من بناة الكاتدرائيّات إلى علاوات الانتاج

١٠ آيار ١٩٤٧

قبل أن سافر السيّد ڤنسان أوريول الى إفريقية الفرنسيّة وجّه نداءً الى «بناة الكاتدرائيّات». وبعد عودته قال، في أورليان، «إن أمثولة جان دارك تعني هي أيضاً الوحدة».

وكان لا بدّ أن تُلفت الأنظار الى هذا التقارب. فرموز فرنسة اليوم نجدها في ماضيها، وهي أشدّ الرموز إثارة للحزم وللتحمّس.

لقد استعان رئيس الجمهورية الفرنسيّة بأسلوب بول كلوديل المعهود، عند سفره، في تولوز وبعد عودته في أورليان. وكلمات السيّد ڤنسان أوريول هذه تستحقّ أن تدويّ بعيداً وتبلغ كلّ الشواطئ.

إن ڤنسان أوريول، القديم العهد بالاشتراكيّة، وقد جاوز عامه الستّين، ويستطيع رؤية كل شيء والتبصّر برويّة في أمور الناس والحياة، يؤكّد، باختصار، أن المطالب (العمّاليّة وغير العمّالية) لا يسعها أن تتجاوز الإمكانات بدون أن تعرّض جميع المواطنين معاً للخراب. وشدّد على أن للقوى البشريّة، أيّاً تكن طبيعتها، حدوداً ولا يجوز، **تلبية لرغبة الإسراع**، استنفاد طاقة الأمّة بالشقاق. وقال حرفيّاً: «**لا يتصوّرن أي فرد أو أيّ تكتّل اجتماعيّ أنه يصون مصالحه وامتيازاته بسعيه الى غايات أنانيّة**. فالأنانيّات ما عادت تأتي بفائدة، **وهلاك فرنسة يُهلكنا جميعنا**».

هذه الحجة تصلح لكلّ الأجواء. فالمعضلة الاجتماعيّة، في كلّ مكان،

إن حُرِّرت من الحماقات الشائعة ليس لها إلاّ هدف، إلاّ معنى هو **السعادة**، سعادة هذه الأرض، الضئيلة الهشّة العابرة. ولا يجوز بالتالي أن يُسعى اليها في ما قد يسبّب الكارثة، في ما قد يكون أحد وجوه الموت. ان تجّار السعادة في هذا القرن أعلنوا إفلاسهم في كل مكان.

لقد ولّى زمن قبضات الأيدي المضمومة والتهديد الشرّير. ودقّت ساعة الإيمان والشجاعة والصبر. ولسنا نحن من يؤكّد ذلك بل رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة في نثر أصفى من العادة، في نثر «حلّت عليه النعمة»، ويمكننا القول عنه باحترام، إنه نثر من أروع ما تحدّث به رؤساء الجمهوريّة الفرنسيّة الى الشعب منذ زمن بعيد.

كفى الركض وراء الأوهام وحمل المواطنين على التعادي وتغذية الحسد والحقد كما عن قصد.

«**بسرعة وكلّ شيء**» قالت الجبهة الشعبيّة عند وصولها الى الحكم، قبل حوالى عشرين سنة. ومنذ ذلك الحين لقّنتها الحياة، بضراوة، الصبر والاعتدال.

فطالما ينبغي أن ندفع أكثر لكي نحصل على مزيد، فهذا يعني أن جفاف النظريّات لا يكفي لكي يثير نشاط الإنسان وأن الانتاج بتضاءل حين تتعهّده المساواة وحدها.

حين لا نعمل في سبيل الله، نعمل، بلا سموّ، في سبيل المال.

حاشية: تجدر الملاحظة في نهاية هذه السطور أن «علاوات الإنتاج» التي تطالب بها الشيوعية في فرنسة كما في الاتّحاد السوڤياتي أو تطبّقها، ليست بالنهاية الاّ ثغرة (ثغرة شرعيّة وضرورية) في منتهى قدسيّة المساواة.

تقصير العقل والقلب

٤ حزيران ١٩٤٧

«ثمّة سيل من المعضلات يجب حلّها وفقر مُذلّ في الحلول المرسومة لها».

قال الحبر الأعظم هذا القول مؤخّراً وأشار إلى التناقض، على صعيد السياسة العالميّة، بين ما يقال وما يعمل، بين الكلام الطنّان والأفعال الخالية من العظمة والجمال.

بيد أن في كلام الأب الأقدس دعوة إلى الرجاء: **«المستقبل للمؤمنين لا للمشكّكين. إنه لذوي البأس الذين يأملون ويعملون بحزم لا للمُتهيّبين. المستقبل للّذين يحبّون لا للّذين يُبغضون»**.

لا نقرأ هذه العبارات الاّ ونرتعش ونعجب من صدور هذه الحميّة وهذه النبرات عن البابا السبعينيّ فيما كثيرون من الشباب يفتقدون الشجاعة والآفاق الفسيحة.

ما شأن هذا القرن الثائر والمُحبط في آن معاً والتائه في اكتشافاته، والضائع في أوهامه وعنفوانه ويدّعي تفسير كل شيء فيما هو يجهل تفسير بؤسه الخاصّ؟

في هذا العالم المخيّب بأوهامه لا بدّ أن نقلع عن كل ابتهاج اذا توقّعنا السعادة من حكومة البشر وحدها. ذلك أن تقصير الحكومات يدعو إلى العجب حتى لنخال هذه الحكومات غائبة حين نشهد عقم أعمالها، وأفضلها تستطيع، على الأكثر، تجنّب الأسوأ.

من أسباب هذا الشقاء المعنويّ والماديّ أن ما من مكان صفت النيّات فيه ورأينا رغبة حقيقية بالنسيان والغفران والسلام.

قال الأب الأقدس إنّ الحرّية ما ترسّخت بعدُ في العالم كما نأمل لأنّ ملايين البشر لا ينفكّون يحيون تحت وطأة الظلم والاستبداد. والجماهير البشريّة تُعامل كقطيع بلا مستقبل من لدن أسياد تأسرهم نظريّات مبهمة فلا يثقون الاّ بفطنتهم.

ليس ما يُلفت حقّاً أكثر من هذا التناقض الذي أعلنه البابا بيّوس الثاني عشر بين «سيل المعضلات والفقر المذلّ في الحلول المرسومة لها». وهذه الملاحظة التي وجّهها قداسته إلى العالم كلّه ينبغي أن تكون عبرةً للجميع.

الإضرابات في فرنسة

١٢ حزيران١٩٤٧

لا نتابع الآ بحزن انتشار الإضرابات في فرنسة. فكثرة المصاعب، الاجتماعيّة الطابع، في ظلّ حكومة اشتراكيّة، تعني من جانب العمّال، أن ما يذكّي حماس الشعب ليس، بجوهره، مذهباً فرنسيّاً، بل مذهباً غريباً.

إن مذهباً غريباً يستأثر بالعامل الفرنسي وبمستقبله لا بدّ أن يُلحق ضرراً بفرنسة ويُخضع النفسيّة الفرنسيّة إلى مقرّرات ومبادئ لا تتلاءم قط مع التقاليد الفرنسيّة، مع مبرّرات وجود فرنسة.

إن ما تعانيه فرنسة الآن سبّبته حالة ذهنيّة ما عرفت (أو ما استطاعت) الأجيال الثلاثة السابقة مكافحتها. فعلى صعيد الأفكار كان لا بدّ من موقف دفاع شامل في مواجهة الموقف الشيوعيّ الحاسم. ونقصد هنا دفاعاً منطقياً وشرعيّاً، عن طريق البيت والمدرسة والكتاب وبالعلم نفسه.

ما رأت الدولة الفرنسيّة هذا. ما رأت أن كفّة الميزان قد تميل إلى جهة التهديم، طالما هي تبدي عدم اكتراث وتشكّكاً.

إن ما سلّمت به أوساط الغرب السياسيّة بالنهاية وما رأته الكنيسة منذ قديم الزمن هو أن أُسس المجتمع والإنسانيّة هي بعينها مُعرّضة.

معلوم أن حركة «الإضرابات الدوّارة»، هذه الحركة الخفيّة القُدرة، التي تحدّث عنها السيد راماديه منذ حين، إنما مصدرها فكرة تهديم (يزعمون تبريرها بأهداف بنّاءة) فالمسألة **ليست مسألة أجور، ولا مسألة بحبوبة تلك**

التي تولّد هذه البلبلة، بل هي مسألة نظام معيّن.

لا يسعنا أن نتجاهل بعدُ هذا الأمر الآ اذا شئنا أن لا نعنى بما هو أثمن ما في الدنيا.

لا تقلّ الاضرابات التي تعمّ فرنسة اليوم خطورة عن تهديد بحرب. ولا يجوز للأكثرية الفرنسيّة الساحقة أن لا تدرك هذا الواقع.

حدّثني حديث الحبّ

١٤ حزيران ١٩٤٧

يستحقّ المقطع التالي من تصريح لوزير الصناعة التشيكوسلوڤاكي، نقلته البرقيّات، أن يدخل في التاريخ: «**نحبُّ الاتحاد السوفياتي لأن لا مصلحة له قطّ بأن نصبح إحدى جمهورياته ونودّ أيضاً أن نحب أميركة**».

هي صرخة قلب عبّرت عنها شفاه رسميّة. ونادرة هي الأمم الصغيرة التي لا تقرّ هذا الكلام. فهي لا تطلب إلاّ ان تُحبّ العالم كلّه شرط أن تُترك وشأنها.

لو علّلنا تعليلاً عكسياً لقلنا: لو سعى الاتّحاد السوڤياتي الى جعل تشيكوسلوڤاكية إحدى جمهورياته لانقطعت تشيكوسلوڤاكية عن حبّه!

ما أضيق فسحة الحبّ!

- سأحبّك طالما أنك لا تريد أن تأكلني، سأحبّك من كلّ قلبي، هذا ما قاله الطفل إلى الغول[١] - لكن هذا النوع من الحبّ يثير الرعشة فينا.

قد يُسعد المجر والنمسة المهدّدتين الآن أن تستمدّا من جارتهما تشيكوسلوڤاكية، المطمئنة ظاهراً، بعض التهدئة. فهما أيضاً لا يطلبان الاّ أن يصرّف فعل «أحبّ».

بيد أن وزير الصناعة في حكومة براغ حين يضيف أنه يريد حبّ أميركة

١. في أسطورة شائعة.

أيضاً يتّخذ كلامه طابعاً مؤثّراً. إذ كيف يمكن الجمع بين مثل هذين الحبّين الخطيرين بدون التعرّض لضربة صاعقة؟

إن أوروبة الوسطى، كلّها، على ما نرى (أو نحزر) ترغب بالحبّ. وما قاله وزير الصناعة التشيكوسلوڤاكي لا بدّ أن يكون الآخرون يفكّرون به.

ذلك أن الدول الصغيرة وراء أسوار الصين الأوروبية أو أمامها تهدل هديل الحب وهي تُثير الشفقة على مصيرها. واليوم، كما بالأمس، عليها أن تقنع بالعيش قرب الخطر وهي تترنّم غزلاً بالحبيب.

بين الڤاتيكان ومصر

٢٦ حزيران ١٩٤٧

ستقامُ إذن علاقات دبلوماسيّة بين الڤاتيكان ومصر. ومنذ زمن بعيد علمنا ان جلالة الملك فاروق راغبٌ جداً بذلك. وقد شجّعه على هذه الخطوة تأييدُ شخصيّات بارزة كعزّام باشا، مثلاً. كانت هذه الفكرة تنضج على ضفاف الليل حين كان الڤاتيكان يُهيّئ دراسة أوّلية لهذا الموضوع.

لا تخفى على أحد فوائد هذا القرار الإيجابيّ. وقريباً ستجري مباحثات سياسيّة بين أهمّ دول الجامعة العربيّة والكرسيّ الرسوليّ وذلك لمصلحة عشرين أمّة ولمصلحة السلم.

كان من المناسب، ولا ريب، أن يقترن حضور الكرسيّ الرسوليّ في لبنان بحضور في القاهرة نظراً للإمكانات العظيمة التي يوفّرها الاتصال السياسيّ المباشر بين مصر ودوائر الڤاتيكان. فهكذا تبرز من جديد المفاهيم الواسعة الآفاق التي ميّزت العصور الذهبيّة العربيّة.

لقد حانت ساعة القوى المعنويّة والروحيّة. فكلّما تراجعت روح السيطرة في عالم متحوّل تقاربت العقول والقلوب وحلّت دوافعها محلّ دوافع القوّة والمصالح المادية.

هذه الأمور الجديدة التي نشهدها ليست جديدة الاّ لأن قروناً طويلة مُظلمة أطفأت الشعلة في القلوب، ولا بدّ أن ينبعث أمل كبير لدى ذوي الإرداة الحسنة تواكبه عودة مقصودة إلى أصدق مبادئ الأخوّة والتسامح

وأكثرها انسانيّة.

عن طريق العلاقات الرسميّة بين البلدان العربيّة والڤاتيكان سنرى عودة ازدهار الشغف بالعظمة الروحيّة لإرواء ظمأ قديم إلى الصداقة والحبّ في نهاية المطاف.

الحرّية العزيزة

١٤ تمّوز ١٩٤٧

واضح أنه يعزّ على شعوب تشيكوسلوڤاكية والمجر وفنلندة، الخ... أن تظلّ غريبة عن مؤتمر باريس. وقد قيّض لنا أن نتبيّن الحسرة التي تساورهم من طريقة تعبيرهم. هذا ما يدعونه ديمقراطيّة وحرّية شعوب وسيادة أمم!

لقد تواطأ القاموس السياسيّ في زماننا مع الخداع. بحيث أن بين شعب «حر» وشعب «حرّ» آخر تظهر سيطرة وعبوديّة كما بين جمهوريّة وجمهوريّة، وبين ارستقراطيّة وطبقة وضيعة.

فالأمم الصغيرة إن لم تكن زبانية خرساء للأمم الكبيرة هُدّدت في روحها وحياتها. إنها شرعة الحديد في هذا القرن المتمدّن والتفسير النهائي لفلسفة هذا الزمن.

فهل من ينخدع بعد بالخطب الكاذبة والتأكيدات المجانية الوفيرة، وماذا يرتجي العالم من حالة ذهنيّة كتلك التي تسود الآن. وما الفائدة من الإصرار على أن أوروبة ما لم تنقسم إلى قسمين وقد فككتها نزعات متناقضة؟

ألا نرى أن أسوج في معسكر وفنلندة في معسكر آخر، وكذلك النمسا والمجر. أما تشيكوسلوڤاكية فبعد أن أعلنت موافقتها اضطُرت إلى العدول عنها. ذلك أن أوروبة الشرقية كلّها تخضع لإرادة الاتحاد السوڤياتي المتوعّدة، بينما غرب أوروبة يدور حتماً حول شموس أخرى. وهكذا تبدأ التكتّلات وتتقدّم.

بوسعنا أن نتأكّد ونؤكّد للغير أن القضية ليست الاّ قضية مصالح ماديّة. والكلّ يعلم أن الشر منذ ثلاثين سنة ما انفكّ يُفسد الأدمغة ومولّدات العقل هي التي تتجابه. فالمسألة ليست مسألة تأمين الخبز فقط بل هي مسألة الإيمان. فنحن نضع قوانينا على صورة معتقداتنا.

في أساس كلّ المأساة ثمّة تحديدان مختلفان للإنسان. ولا يغربُ عنا عبءُ الاستبداد الذي ترزح تحته أقلّيات أوروبة الشرقيّة التي قد تكون أكثريّات. فالكبت وتبادل السكّان يُمليهما دائماً قانون إيمان. هكذا تنشأ الأراضي غير الإنسانية...

إن مسار العالم لا يُرضي العقل ولا الشعور. فأن نكون قد وصلنا إلى هذا الحدّ بعد سنتين من نهاية الحرب فحصيلة لا تبشّر بالخير. لكنّنا كثيراً ما ننسى الخطيئة الأصلية التي نحملها في نفوسنا.

تأمّل في الصباح

١٦ تمّوز ١٩٤٧

إن الكتابة صباحاً، في الجبل، أمام بعض أزهار، وفي ملاطفة النسيم البليل، تحمل على الغبطة والتفاؤل، وعلى ثقة مجدّدة بالنفس والكون.

ساعة لم تخرج الأفكار السّيئة بعدُ من مخابئها، ساعة تبدأ الحرابي تتعرّض لأشعّة الشمس، وينساب الماء الجاري في منعطفات البستان، على ساق الأغراس الفتيّة، نتساءل هل كلّ ما تعلّمناه في العشية من قاتم وقبيح يُنافي الحقيقة وهل أن الليل هو الذي خلّف آثار حلم مزعج.

ما كانت الطبيعة قطّ على تعارض، بهذا القدر، مع نيّات الناس وأفعالهم. فكلّما هي ازدادت صراحة ازداد الإنسان تخابثاً. فكم يصعب على كلّ واحد منّا أن يبوح بما ينوي، وأن يُعلن بصوت عال ما يُضمر. لكنّ الصباح، عند انبلاجه، يبدو كأنه طهّر كلّ شيء.

وهكذا تطابق الحياة هدفها. فهي طاهرة وبسيطة وتدعو إلى عمل هنيء أولئك الذين لم تقضّ المظالم مضاجعهم. وهي تُظهر المجتمع البشريّ واقعاً عذباً وتكشف عن شفافية كل ما هو فتيّ وصاف.

ومع هذا يكفي القليل حتى يتغيّر كل شيء وحتى لا يأنف الحالم الصباحي النزول إلى المدينة وتحمّل الضوضاء. لكن العقبات الأولى تصدر عن أول الناس الذين يكتفيهم بأنهم ينظرون اليه وكأنه غريب. فهم ينتشرون في الضجيج، مُفعمي النفس بالرغائب ويفكّرون، وقد توتّرت

قسمات وجوههم، بالطريقة التي تغلّبهم على قريبهم.

إن هذا العصر العلاّمة يتناول الحياة على عكس ما هي. فهو يهربُ من الطبيعة عوض أن يفتّش فيها عمّا يُهدّئ روعه. وهو يغرق كلّياً في الحسابات والافتراضات حتى لكأنه يسعى إلى السلم عند نهاية الحروب بدل أن يعيه كبداية كلّ شيء.

في اليونان

١٩ تمّوز ١٩٤٧

إن اليونان هي اليوم كما كانت أيّام ماراتون وسلامين، حصن الغرب. وقد حلّ آخرون محلّ الفُرس في عهد كزركس. وتركيّة نفسها، أي طروادة وكل آسية الصغرى، متضامنة مع الأتّيك.

لا نفهم حضارة أوروبة من دون اليونان، ولا السلم في الغرب. فشبه الجزيرة الشهيرة التي قلبها أثينة تقيمُ التوازن طبيعيّاً مع أسبانية. إنها تُحيط طبيعياً بالبحر المتوسّط. وهي ليست سلافية ولا دانوبيّة. وتتّصل بالدانمرك بخط جغرافيّ خياليّ وبسلالتها الملكيّة. وترتبط بأوروبة الكلاسيكية بروابط أبوّة وبنوّة. لذا ندرك تماماً الأسباب التي تحمل الآن أوروبة الغربية وأميركة على متابعة ما يجري في اليونان باهتمام شديد.

إن التهديد الذي تتعرّض له اليونان ليس سياسيّاً فقط، بل يطول سقراط ويطول أفلاطون وأرسطو. وهو من الأهمّية بحيث يتناول البارثينون والفنّ اليوناني. ولكن ثمّة أمراً آخر هو أن البحر الداخليّ، مسقط رأس أوروبة، يفقد سماته ووجهه إن راح يخضع لجماعات بشريّة متغايرة تنتشر بين آسية الوسطى حتى المحيط الهادئ.

التهديد الحالي هو نقيض محاولة الإسكندر، تلك المغامرة الجبّارة التي قادت المقدونيّ، بوثبة واحدة، حتى الهندوس. والآن نرى أن شمال آسية ووسطها وشمال أوروبة الشرقيّة كلّها تضغط معاً على العالم بجميع

مساحاتها وإمكاناتها. وما زالت نزعة الغزو سائدة بحجّة الدفاع المشروع عن النفس وتدابير الوقاية.

وها الأرض، بالنهاية، تبدو عاجزة تماماً عن الخضوع لسيّدين تناقض مذهباهما تناقضاً جذرياً.

إن الموقعة الحربيّة في اليونان محفوفة بالمخاطر. فمحاولو الغزو، أكانوا افراد كتيبة دوليّة أم أتباعاً بلا سند رسميّ، اتّخذوا مبادرة العنف. وإن لم يوضع حدّ لاعتدائهم كانت العاقبة وخيمة.

نثر أندونيسي

٢٥ تموز ١٩٤٧

في جاوه هناك الجزيرة القديمة ...
... يذهب التماسيح ازواجاً
هولندة في جاوه الصفراء
تصنع سكّراً في غمرة الطوفان ...

أيّتها الجزر البهية الاخضرار، السند، جاوه، بالي، السلسة القسمات وسوماتره وبورنيو، الكتلتان الاستوائيتان، حيث الغابة العذراء تنساب على مدّ النظر! إنك من جديد تتحرّقين إلى فكرة.

اننا نُحبّ، ولا ريب، أن تنعمي بالحرّية ونريدها لك، ولكن ما أكثر الكُرب والخيبات بانتظارك!

في جاوه أربعون مليون نسمة تعيش على بحبوحة أرض ضيّقة وتتكدّس وسط خصوبة النبات العجيبة. ومنذ عُني الهولّنديون، الدائمو الجديّة، بهؤلاء السكّان انتظموا لكي لا يرزحوا تحت ثقلهم.

تمتدّ جاوه على طول حوالى ألف كيلومتر بعرض مئة. أربعون مليون نسمة على هذه الفسحة الصغيرة أمر لا يتصوّره عقل! (فيما كل جزر أندونيسية الباقية، وهي بالمئات بين كبيرة وصغيرة، لا تكاد تعدّ ثلاثين مليوناً).

لئن جنت هولندة من هذه الأراضي الرطبة والحارقة ثروات طائلة، فقد حافظت، بالمقابل، على أجناس بشريّة هشّة، تحت وطأة سيول جارفة وحرارة جهنّمية.

لولا وجود الهولّنديين في جاوه لكانت وقعت منذ زمن بعيد تحت سيطرة إحدى أمبراطوريات آسية البرّية. ومن العدل أن نقول أن نير الملكة ولهلمينا في عصرنا هو أفضل من نير الميكادو.

لكن اتساع الضمير البشريّ، لكن الخمائر الدقيقة التي تجتاز العالم، لكن الإيديولوجيّات التي تصنع الحريّة (وتمحوها) وصلت حتى هنالك مع الحرب. وأبناء جزر الهند السُمر، القصار القدّ، البرّاقو العيون، انتابتهم، بدورهم الحماسة والحمّى، فانتصبوا، شرعياً، على أرجلهم بقدر ما مكّنتهم قامتهم.

حين ننظر الى الصوّر يبدو لنا رجال جمهوريّة أندونيسية الكبار القدّ، أقزاماً بجانب العملاق ڤان موك، نائب الحاكم العامّ. انها حكاية من حكايات پيرو[1] تعود الى الأذهان حيث الجبّار الذي يبتسم يخفي شرّه. بيد ان المُحاورين انقطعا عن الضحك.

لا يجوز أن تدوم الحرب وويلاتها في جاوه وسائر جُزر أندونيسية.

ثمّة روابط سياسيّة تنتهي الى روابط اجتماعيّة وإنسانيّة وترسخ في المجد. ولا ينبغي أن يتنافر هذا مع الاستقلال الإندونيسي لو واكبه موقف فطِن ومنطقيّ.

ليس من مصلحة الأندونيسيّين أن يصيروا الى الهلاك، ولا من مصلحة الهولنديّين. ولئن كان زمنُنا زمن الكرامة الإنسانية والحرّية فهو أيضاً زمن التعاون في نطاق احترام الحقوق.

١. Charles Perrault: كاتب فرنسيّ اشتهر بحكاياته التي تسلّي الأطفال.

حول مداليّة ورجاء

٢ آب ١٩٤٧

أرانا صديقٌ لنا، منذ حين، مداليّة سُكتّ سنة ١٩٢٨ وقد حملت على وجهها صورة پاستور وعلى ظهرها عبارة «دول أوروبة المتّحدة» حول خريطة أوروبة.

هذه القُطعة يُسمّيها هواة جمع العملات «برونز وسط». وعلى خريطة أوروبة الممتدّة من أقصى فرنسة الى أقصى الاتّحاد السوڤياتي ظهرت كلمة أوروبة مع تاريخ أوّل تشرين الاوّلَ.

ما عثرنا على علامة أو ذكرى تشير الى مبادرة من، وعلى أثر أي مؤتمر أو اجتماع بعض حسني النيّة، ولا في أي مدينة، سُكّت هذه المداليّة. إلاّ أنها وثيقة تثير مشاعرنا بعد انقضاء نحو عشرين سنة. فلو أن ما أنبأت به تحققّ منذ جيل لوُفّرت على البشريّة سلسلة من المصائب الهائلة.

اليوم استهوت هذه الفكرة رجال دولة مشهورين ومواطنين بارزين في أعظم البلدان وهم يناضلون بحميّة من أجل تحقيقها.

عدنا لا نتصوّر أوروبة مجزّأة الى هذا الحدّ. فنحنُ نفهم كل معاني الاستقلال والحريّة والإدارة الذاتية والخاصيّات، لكنّنا لا نفهم التعصّب القوميّ الأعمى والتصلّب الرهيب، والأحكام المسبقة الراعبة التي تفضّل التهديد بالحرب والحرب مع ما يواكبها من الكوارث والمآسي والأهوال على التقارب وعلى التوحّد الضروريّ للخلاص.

فهل تستمرّ الشعوب، في سورة جنونها، بالتصارع العنيف لأن في الطبيعة البشرية، كما هي، ما يُثير القلق. إذ هي لا تحمل على الخير وعلى ما هو معقول ومنطقيّ الاّ بفعل أنظمة صارمة، فالضمير البشريّ يعاني بلبلة في كلّ مكان. وما عسانا نرتجي من عالم يُراد بتر روحه وحرمانه من كلّ رجاء!

مَرضُ العالم بؤرته أوروبّة. فأوروبة القديمة ما انفكّت مركز الكون المعنويّ والثقافيّ. فهي إمّا ان تنجو وتجد من جديد، في عصر الاكتشافات هذا، توازنها وقوتها وإما ان تودي بالبشرية الى مهبّ الإعصار.

«دول أوروبة المتّحدة»! إلى متى سيظلّ هذا الشعار وهماً أو حلماً؟

خطاب المستر أتلي

١٣ آب ١٩٤٧

إن صوت المستر أتلي الهادئ، المنخفض والمتعب قليلاً، سمعناه مساء الأحد. لقد تكلّم رئيس حكومة المملكة المتّحدة عند الساعة الثامنة من لندن. وتحدّث عن المصاعب التي تلقاها إنكلترة وما تقتضيه من تقشّف للخروج من المحنة ودعا الى وثبة نهوض.

بنبرة رتيبة، وتأكيدات رزينة، جاء بيان رجل أدّى واجباً مريراً بكّل حشمة وتواضع.

قال المستر أتلي: «ليس الآن وقت البلاغة». وطلب الى الشعب الإنكليزيّ أن ينتبه والى أعضاء جميع الأحزاب أن يُصغوا باهتمام. وشرح مصدر الأزمة وتفاقم المأساة الخانقة.

بعد انتظار طويل، في العالم، ما زالت الموادّ الغذائيّة تنقص وأسعارها بالدولار مرتفعة. وإنكلترة المكتظّة بالسكّان حتى الانفجار لا تستطيع أن تحيا على موارد تربتها الغذائية. فهي تشتري الكثير من الخارج. وعادت لا تقوى على ذلك لأنّ مصادر ثروتها ما وراء البحار قد تبخّرت. والحربُ أفرغت خزينتها وهدّدت مستقبلها، والناس لا يكتفون بالمجد غذاء لهم.

إن انكلترة، هذه الجزيرة الصغيرة، رهينة البلدان الأجنبيّة التي فتحت لها اعتمادات كبيرة حين كان المدفع يدوّي والقنابل تتساقط. والأن اقتضى دفع ثمن الغذاء الضروريّ وتسديد الديون في الوقت عينه. هذا كلّه

والصناعة مُفقَرة ووسائل الإنتاج مُتعبة. لذا وجب الاكتفاء بالأقلّ من الخبز والتبغ وممّا يؤمن استمرار الحياة ويخفّف من قساوتها. ولا بدّ من شجاعة أشدّ ومن عمل أكثر. لا بدّ أن تعود النساء الى الحقول. وينبغي على خمسة وأربعين مليون من الناس بين الأكثر تمدّناً في العالم أن يستنبتوا، بعرق الجبين، أرضاً قاحلة، في الغالب، وسائل العيش. (مقابل كلّ هكتارين من الأرض الصالحة للزراعة في فرنسة ليس في انكلترة الاّ أقلّ من هكتار واحد، عدا تدنّي نوعية أرضها وقساوة طقسها).

قال المستر أتلي كلّ هذا أو ألمح اليه. واعترف بأن وقر المسؤولية يُثقل كاهله. لكنّه طلب الى كلّ انكليزيّ أن يتحمّل مسؤوليته لكي يستطيع الشعبُ أن يقف على قدميه.

طلب المستر أتلي من كلّ مواطن أن يرضى بالتضحيات الضروريّة، كما طلب الى الأمّة بأسرها مجهوداً شبيهاً بمجهود الحرب.

تساورنا الكآبة حين نفكّر بالنصر «الهزيل المذهّب» وبما اقتضى من آلام ودماء للوصول الى هذا الشقاء.

مرّة أخرى سمعنا رئيس وزارة إنكليزيّ يعتمد على الشجاعة ويوحي بالصبر ويؤكّد ثقته بالانتصار. ونأمل أن يتحقّق ذلك لإنكلترة، لأن مثل هذه القوة المعنويّة الفائقة تستحقّ مصيراً أفضل. لعلّ هذه المرحلة الحرجة التي يجتازها هذا البلد العظيم تكون أمثولة لكلّ الأمبراطوريّات.

لا شكّ أن انكلترة ستخرج من محنتها. ولكن ما النفعُ بعدُ من شنّ الحروب طالما أن نتيجتها لدى المنتصرين هي كما نراها؟

مسيرة العالم الجبّارة

١٤ آب ١٩٤٧

«فيما كان يشغلُنا همُّ الحياة والموت كعامّة الناس، كانت مسيرة العالم الجبّارة تكتمل» ... هذه العبارات المؤثّرة نجد مثلها بسهولة في «مذكّرات ما وراء القبر» لشاتوبريان. إنّها تحمل طابع الرومنسيّة الصاعدة. ويبرز فيها التضادّ بين رعونتنا والمصير. وكان لا بدّ أن يعاني شاتوبريان اضطراباً شديداً ليصل الى ظاهر اللامبالاة هذه.

من طبيعتنا أننا لا نُدرك بُطلان تحرّكاتنا الاّ حين يدنو الأجل. نتكلّم ونكتب زمناً طويلاً عمّا لا يستحقّ الاّ القليل ولا نكترثُ بالقضايا العظيمة. فلئن خلا هذا القرن من النُضج الذي ربّما توقّعناه فلأننا انقطعنا عن التفكير. عدنا لا نعرفُ، ولا نستطيع أن نفكّر بلا جهد. فالسرعة تجرف كل شيء فيَ تيّارها.

منذ سنّ الرشد حتى الموت يستولي عدم الصواب علينا زمناً طويلاً. وهذا الشغف الفطريّ باللامتناهي في الصِغر أدّى تفتيت الذرّة بالنهاية الى إثباته من قبيل المفارقة.

لكن من وراء لامبالاتنا تستمرّ «مسيرة العالم الجبّارة» ما دام قلبنا يخفق. وعبر الانشغال بالحياة والموت كعامّة الناس ثمّة معجزات تتحقّق والحياة البشريّة أقصر من أن تقوى على تسجيلها. وأكثر من الفترة التي كتب فيها شاتوبريان ما كتب نحن نجانب اللانهاية ولا نراها ونتلّهى بألعاب

صبيانيّة على أقصى أطراف اللامحدود.

مع عبارة شاتوبريان الساحرة أو من دونها فليقولوا لنا، أخيراً، هل أكثر ما يُعدّ به في هذه الدنيا أصبح وفرة الأعمال الصغيرة أم بعض سلام في أعماق قلبنا لو أعرناه اهتمامنا أحياناً على مرّ الزمن؟

من فوق بحر المانش

٢١ آب ١٩٤٧

عثرنا على سطور كتبناها بسرعة في العام الماضي ونحنُ نحلّق فوق بحر المانش، فوق الهاثر. «أعدنا النظر من علُ الى فرنسة، مرسيليا... باريس... إنكلترة... حتى لندن. هذا المضيق المائي في الزَبد والشمس - هل يمكن أن يفصل بين شطّ وآخر أكثر من هذه الخطوة، من هذه اللحظة، من هذا المجال الصغير الذي بنى وخرّب العوالم؟ كيف نشأت، في مثل هذا التجاور، روحان مختلفتان؟ وكيف جعل قليل من الماء ما كان هاوية على مدى زمن طويل؟ لكنّ هذا قد انقضى عهده وما استطاعت الهاوية أن تستمرّ بلا نهاية. بين فرنسة وانكلترة تدور مأساة عقل: حيرة في الفكر ونوع اضطراب في القلب. - ها مُروج انكلترة وأحراجها والسقوف الحمر».

بعد الحقول الفرنسيّة المستقيمة الخطوط، المستطيلة، الخاضعة لمقتضيات القانون المدنيّ والقسمة، ها الخطوط المنحنية، الخطوط المرنة، التي تميّز المنظر الطبيعيّ الانكليزيّ المتعرّج، المدوّر، على الصورة التي رسمها لها التقليد الطويل وحقّ البكريّة.

اليوم ترتدّ «الجزيرة» على البرّ وقد أثقلتها المُعضلات والمحنَ والوحدة. وما كان يبدو نعمة للإنكليز منذ البدء، ما عاد كذلك. فالشَرَمُ الذي يضيقُ عند طرفه أمام سنغات وكاليه وأعطى اسمه كلّ المقاطعة، هذا الشرمُ، هذا

المضيقُ حان أن يُعبر نهائياً وتُخلق بين إنكلترة وفرنسة، بفضل تيّار التبادل المتواصل، دورة دمويّة يواكبها نشاط مُحرّر من العوائق. فبهذه الطريقة فقط تنجو أوروبة البريّة و«الجزيرة» من الانحطاط وتنقذان تُراث الماضي.

من خلال بريطانية العظمى وفرنسة ليس عن عبث تترسّخ فكرة الوحدة الأوروبيّة في العقول، ويدور الآن، حديث حول مصالح لا تتجزّأ.

إن أوروبة الغربيّة مُقبلة على قرارات حيويّة. ومئتا وخمسون مليونا من البشر، هم بين الأدمغة وأشدّ الأجساد تناغماً، ينتظرون منها الحياة أو الموت. إن الأزمة البريطانية هي وجه من أزمة النموّ الأوروبيّة. وهي أشد عسراً بسبب الشرم. لكنّ اللحمة بدأت تتحقّق.

ونحن نشهد ولادة شاقّة لأمبراطورية غرب جديدة تُخرجها أميركة، قُلكان[1] العصر، كما مينرفا، من دماغ جوپيتر.

١. Vulcain : إله النار والتعدين الأسطوريّ.

ثمن النصر

٢٥ آب ١٩٤٧

إن نظام التقشّف الذي ارتضته إنكلترة طوعاً والذي شهدته مؤخّراً، بحكم الضرورة، لا يُمكن لسائر العالم أن يقف منه موقف اللامبالاة. إنها أمثولة حاسمة سيحفظها التاريخ.

ها أمّة، بين أعظم الأمم، أرغمت أعداءها على الاستسلام بلا قيد ولا شرط، بعد حرب طويلة الأجل، استبسل خلالها كلّ الشعب في مواجهة الخطر اليوميّ. ها هي تجد نفسها مُرهقة بانتصارها. مُرهقة مادياً، لأنّها تبدو معنوياً أرفع ممّا كان يُنتظر، وقد عزّزت مجدَ الإنكليز ومجدَ الجنس البشريّ.

أيّ شعب آخر كان يرضى بهذا البؤس ثمناً لهذا المجد ولا يقوم بثورة.

هذا هو رصيد المغامرة العسكريّة «الجميل»، رصيد اللجوء الى القوّة الذي لم تعرف كلّ الأزمنة أكمل منه. فما نراه ونسمعه ليس تظاهرات احتفاء بالنصر ولا حماسةً شعبيّة، بل سلسلة نداآت مؤثّرة معتدلة للقبول بالحرمان، بل انتظاماً متيناً هدفُه قطع معظم حلاوات العيش عن سكّان المملكة المتّحدة طوال مرحلة غير مُحدّدة.

هنا يظهر التعارض اللافت بين نقطة انطلاق الحرب وعواقب السلم. وحين نلاحظ هذه المفارقة لدى المنتصرين لا بدّ أن نتساءل ما عسانا نفكّر بوضع المنهزمين.

إن حالة إنكلترة هي أعجب ما سجّله التاريخ كلّه. فالإرث المادّي الذي تجمّع طوال أربعة قرون، بفضل حسّ المبادرة والجهود المبذولة، قد تبخّر كلّه والمبالغ التي أُنفقت تجاوزت كل الحسابات وثمناً للمقاومة وللمزايا الوطنيّة التي تحلّت بها انكلترة تُطالب، كبداية، بما يعادل توظيفاتها الماليّة في معظم البلدان. فهل ثمّة ما يبعث مثل هذه الخيبة في النفوس؟

أياً تكن المعضلات التي تواجهها إنكلترة اليوم وأياً تكن النظرة الى شرعيّة هذا الموقف أو ذاك من مواقفها، لا بدّ من الاعتراف بأنّ المصاعب التي تمّر بها والشجاعة التي تبديها تدعو الى التفهّم، من جهة، والى الاحترام، من جهة أخرى.

ما من مَثَل أجمل من مثل الإخلاص هذا للوطن وفي طاعة القوانين.

إن سبارطة، زمن الطعام الرديء المائع والترموبيل[1] ما فعلت أفضل مما فعلته انكلترة.

١. Thermobyles.

التفسير الكلاسّيكي

٣٠ آب ١٩٤٧

لو لم يكن لمصر الموقع الجغرافي الذي هي فيه، ولو أنها قامت، بدل أن تكون حيث هي في ناحية ما من آسية الوسطى مثلاً، لقلّ كثيراً اهتمام الأمم لها، ولما كان لها الامتياز البارز بأن تغدو موضوع مجادلة شبه كونيّة بحيث يتوقّف القرار بالنهاية على البرازيل وكولومبيا وحتى على بلدان أبعد.

لا يجب أن ننسى أن جمهوريّة پانامة وُلدت من ضرورة منح رقابة خاصّة للقناة التي تحمل الاسم عينه. فهي قبل شقّ القناة لم تكن الاّ مقاطعةً صغيرة بحريّة من كولومبية. فالترابطُ المتبادل بين الأمم وقوّة الممالك قضيا بهذا: **ضرورة أن يقيم بعض الناس حيث يخشون حضور الآخرين.**

إن في الحقّ الدوليّ اميتازات سريّة يُخبئها ضربٌ من الرياء بيد أن وجودها ظاهر. وإنّ أكثر من استقلال سيبقى الى ما لا نهاية مهدّداً ليس لأسباب حضاريّة قطّ، **بل لاعتبارات تتعلّق بالجغرافية وعلم طبقات الأرض ليس إلاّ.**

إن دولة عظمى «عالميّة»، بتحديدها، تريد أن تقوى على مراقبة مسار العالم العامّ، فهي تلزم نفسها، كما تقول باللغة العاميّة، بأن تضع أنفها في شؤون الغير. فحيث ثمّة طريق كونيّة تفرض حقّها بالرقابة بطرق مختلفة وعلى دَرجات مختلفة. وهذا ما يقال أيضاً عن النفط وعن مناجم الذهب، وعن أحواض الفحم الحجريّ، ومقالع الحديد وعن كل ما هو عنصر من

عناصر القدرة «العالميّة».

ونعلم جميعنا أن الشرق الأدنى من آسية هو **الآن، بين جميع مناطق الكرة الأرضيّة**، في أخطر موقع. فلا نعجبنّ إذن من كثرة المنازعات التي تنشأ حوله وتستمرّ.

أمّا العبرة التي تُستخرج من ذلك فهي أنّه ينبغي لشرقنا سياسة رشيدة مرنة جداً، وينبغي له أيضاً، تلافياً لسوء المصير، كنوز من صفاء الذهن. ويجب على كلّ البلدان التي يتكونّ منها أن تتعاون وتتضامن بدون تردّد مع إدراكها العميق حقائق الجغرافية والتاريخ، وباختصار الكلام، حقائق الحياة.

قصيد رعويّ

١١ أيلول ١٩٤٧

إن المطر الذي تساقط ذلك الليل على الجبل، وهو يؤمل ويُنتظر، وجدنا روائعه عند الفجر. كانت الشمس تذرّ قرنها حين ظهر على الطريق فتىً في عامة الخامس عشر أو السادس عشر له جلال الهناء، ومعه كلبه ينتشيان بتنشّق رائحة الصنوبر والنعناع والحبق الفائحة من الأرض المبلّلة.

«ما عَهدنا قطّ مثل هذا قبل العيد»، صاح من بعيد فلاّح مسنّ، متهلّل الوجه، رفَيق قرويّ لنا، درزي المذهب، معافى، في عقده الخامس، ينطق بالحكم ككتاب الأمثال، يصحو باكراً كعصافير الدوريّ وذو خبرة بالطقس.

«ما عهدنا قطّ مثل هذا قبل العيد» (عيد ارتفاع الصليب). ذلك أن المطر في لبنان قلّما يتساقط قبل ١٤ أيلول. إنه نعمة من الآلهة وبركة من السماء.

إذن هطل المطر مدراراً ذلك الليل وحتى ساعات الصباح الأولى. لذا نكتب هذه السطور الى قارئ مبال أو لامبال. وتغمرنا نشوة أمام مشهد طبيعيّ غسله المطر واستقرّت فيه الشّمس ببهائها كألوان رسّام على لوحة.

ما نرويه الآن لا علاقة له طبعاً بالصحافة، لكنّه نابع من النور، من الحياة. ففي زمن ضيّق على كل ما يسمو بالبشر يُحسن بكلّ انسان أن يكون له حظّه من هذا السموّ.

في الحديقة أزهار الأضاليا الباسقة، النضرة، المستقيمة الجذوع، تبدو بدون حراك. ووراء السياج تزهو أشجار الإجاص البريّ، بقوامها الكالحة، من خلال الغصون. وفي منحدر التلال كلّ شيء أخضر وذهبيّ؛ من ذرى السرو والصنوبر الى أشجار التين والكرمة حيث البُقع السُمر التي فرزنها الماوية الخائرة تحمل طابع نهاية الصيف.

وفي البعيد، على البحر اللؤلؤي، سفينة تشقّ عباب البحر وترسم نصف دائرة كأنّها قوس قزح في الماء.

بئس القانون الصارم الذي يفرض علينا أن لا نتكلّم صباحاً الاّ عن مصائب الشعوب وبؤس العالم!

يقظة الكومنترن[1]

٨ تشرين الأوّل ١٩٤٧

ها الدوليّة الشيوعيّة تولُد ثانيةً.

ان الكومنترن الذي نشأ سنة ١٩١٩ وحُلّ في حزيران ١٩٤٣، في عزّ الحرب، حين كان النصر قد بدأ يتأكّد، ظهر من جديد كإحدى القوى في العالم واستعاد دوره الاعتدائيّ ووجه المصارع المتوتّر.

خُيّل الينا، في وقت ما، أن الشيوعيّة تميل الى الاعتدال والى نهج وطنيّ، متخلّية عن التبشيريّة على نطاق عالميّ. لكنّها في الواقع لم تلجأ الى الظلّ، لفترة ما، بل الى تكتّم نسبيّ. ولم يكن بوسعها غير هذا خلال الحرب.

موقف الدولة في الاتّحاد السوفياتي حيال الكنيسة الأرثوذكسية، منذ سنة ١٩٤٥، كان كالصفحة المقابلة في سجلّ واحد. كان يُعلن أكثر حريّة في الظاهر، كما يعلن الكومنترن إلغاء الهدنة بعد القتال.

إن الاتّفاق الذي عُقد، الأسبوع الفائت، بين الاتّحاد السوفياتي وتوابعه وزبانية السياسيّة، انتزع المؤمنين بالشيوعيّة من رقادهم ودفع بهم الى الصراع. ولئن أملنا باستمرار التساهل النسبيّ تجاه الكنيسة الأرثوذكسية لأسباب اقتضتها الظروف، فلا بدّ لنا، مع هذا، أن نتوقّع

١. Comintern (Internationale communiste) : اختصار الدولية الشيوعية.

ثوران البركان من جديد.

منذ اتّخذ العالم وجهاً مزدوجاً تقدمّنا نحو هذه النهاية المشؤومة الحتميّة. لكنّ كلّ محاولات الاتّحاد والاتّجاه نحو الوحدة باءت بالفشل. كان شأنها شأن من رام أن يخلط الأبيض بالأسود والليل بالنهار وأحد القطبين بالقطب الآخر.

إن الحقيقة، في جوهرها، لا تتجزّأ، والمساومة معها تنتهي دائماً الى فورة غضب، لأن الخلاف حادّ بين العقائد الكلاسيكيّة والعقيدة الشيوعيّة، وهو لا يقتصر على طريقة التفكير، بل يتعدّاها الى طريقة العيش. والإمبرياليّات التي نشأت وترسّخت استفادت بقدر طاقتها من أهواء الانسان.

لقد لقيت الصيغة الثوريّة الكبرى أرضها المختارة في هذه العبارة: ثمّة معسكران لا يستطيع أي انسان، جدير بهذا الاسم، أن ينظر اليهما بلامبالاة. معسكران يتجابهان حول تفسير الحياة ومبرّر الوجود، واحدهما يقول للآخر: الإخاء أو الموت.

بعد حلم لم يُطلْ ها نحن جميعنا نوشك أن نلبس الحداد على الإخاء.

افتتاح المدارس وبرامج مدرسيّة

١٦ تشرين الأوّل ١٩٤٧

إنّ افتتاح المدارس يدفعُ الى التفكير بثِقل البرامج المدرسيّة وبذاك التعليم الدائم، تعليم الحياة.

لم تكن البرامج، لخمسين سنة خلَت، تحوي نصفَ الموادّ التي تحويها الآن. **بيد أن كلّ شيء كان يذهب عمقاً**. فلا تكالب على الحشو، بل اكتفاء بالأساسيّ. ولو لم يكن الطلاّب قريبين جداً من أسرار الحياة ومن قوى الطبيعة، كما هم اليوم، فقد كانوا يملكون، على الأقلّ، المعلومات العامّة والطريقة التي تُتيح القيام بأعباء المصير قياماً منطقيّاً.

لو حذفنا، في أسوأ الحالات، كلّ ما تعلّمناه في القرنين الأخيرين، ولو لم ننطلق إلاّ من أرسطو الى جان راسين، فقد يبقى ما يسمو بالنفس كفاية وما يهذّب الروح والعقل، لنجعل من الوجود الانسانيّ مثلاً أعلى من الأمثلة التي يقدّمونها لنا.

لقد أفقر الانتفاخ التعليم. فتراكم الموادّ الغريب الذي يفرضونه اليوم على الولد يسحق عقله الطريّ. وبما أنهم لا يطمحون لأن يخلقوا من كلّ ولد أعجوبة، فالمدنيّة لن تفبرك في نهاية عشر سنوات من زفرات الكدح الاّ عقولاً دونَ الوسط بالجملة.

في الواقع، يبدو أولئك الذين يمارسون التعليم مشدوهين كالتلاميذ الذين أؤتمنوا على تعليمهم. لأنهم هم أيضاً تُحيّرهم غرابة المسالك

والمسيرة الشاقّة ويتساءلون أين البداية وأين النهاية ليجعلوا الامتحان ممكناً بعد ثلاثة فصول من الجهد.

ما عاد بالإمكان تعلّم كلّ شيء كما ما عاد بالإمكان قراءة كلّ شيء. فلا بدّ، والحالة هذه، من الذهاب، في آن، الى الجوهر والى الخطوط الكبرى. أمّا العَرض فيُحصر بالمخطّطات والموجزات التي تجعل البحث ممكناً.

ان الدماغ يؤثّث كما يؤثّث البيت. ويتعذّر بالتالي أن يُجمع فيه كلّ سقط المتاع الذي يوجد عند البائع بل يُكتفى بعناصر مجموعة منسجمة في ترتيب بسيط.

إنها أمور يجدر بنا أن نذكّر بها عشيّة افتتاح المدارس.

على هامش قصّة جنّ

٢٠ تشرين الأوّل ١٩٤٧

وسط البلبلة التي تسود العالم تستعدُّ إنكلترة ومعها الدُول التابعة للتاج البريطانيّ وكلّ أمبراطوريّتها للاحتفال بزواج الأميرة اليزابيت، وريثة العرش، في الشهر القادم.

تفرض الظروف القاسية نوعاً من التقشّف يحدُّ من مدى الاحتفالات الملكيّة والشعبيّة. لكنّ التقليد والعرف يستمرّان حيّين، بحيث تبدو هذه الحكاية الجميلة في منتصف هذا القرن المشحون بالعداء وكأنها قصّة جنّ.

سبقَ لنا أن ذكرنا بأن الأنظمة الملكيّة الباقية حتى اليوم في أوروبة تكاد تكون كلّها في الشمال. وهذه الأنظمة هي في أوروبة، بالوقت عينه، الأكثر اشتراكيّة معقولة، أو بالأحرى الأكثر عناية بالشؤون الاجتماعيّة (مع سويسرة). وبقدر ما تُصبح المؤسّسات ديمقراطيّة في هذه البلدان وتجعل من الشعب سيّد الحكومات والقوانين بقدر ذاك (حتى في تلك التي تقادم عهدها) تُصان وتُحترم.

في تلك البلدان حيثُ الشمس أقلّ حرارةً يتقدّم الاتّزان على سائر المزايا. **والزمان سيّد، بطيء الخطى، يسنّ قواعد الحياة الأساسيّة.**

هناك ما من حسد دنيء ولا غيرة حمقاء ولا غوغائيّة تقلب النظام، بل الحياة في تحرّكها نحو تقدّم متواصل. فالامتيازات التي فقدت مسوّغاتها ومبرّرات وجودها تزول تلقائياً بلا عنف.

فيما تتّسم نظمٌ حالية بالشراسة وحجّتها تطوير الانسانية نحو الأفضل، وتعود بنا الى القرون البربريّة، تمضي بلدان عظيمة في طريقها وهي سعيدة فخورة بأن تقوى امرأة على تجسيد السيادة في المملكة.

أن يكون الإنكليز يقترفون كسواهم أخطاء في السياسة يدفعون غالياً ثمنها فواقع لا يُنكر. لكنّ لهم من طاقة الاحتمال ما يُعوّض عن الأخطاء. فحيثما يفرغ صبر غيرهم فيهوَون، نراهم هم ثابتي الأقدام يتميّزون بالشجاعة. وخير برهان على ذلك ما نشهده اليوم وهم يعانون أسوأ المصاعب في تاريخهم.

بينما تخفّض الحكومة العمّالية حُصص الغذاء للمواطنين وتزيد من حرمانهم وبينما هي تطلب منهم عملاً أكثر وجهداً أوفر، وبينما هي تؤمم أكثر فأكثر، على خطأ، كما يبدو، (رغم أن إخلاص الإنكليز للوطن يفسّر كلّ شيء)، نراها تنظّم، بكلّ احترام وأصدق محبّة، احتفالات زواج الأميرة اليزابيت.

نحن لا نجدُ مفارقة تاريخيّة في هذا المجال، بل نتذكّر، كما في عهد طفولتنا، أن الحياة قوامها رموز وصُور وهمهمات. ولكي يبقى لها جمالها ورونقها لا بدّ أن ترتمي في أحضان الطبيعة السحريّة، في الشعر.

إن الحياة، أكثر من ذي قبل، هي تلك «العاصفة» المُدويّة التي وصفها شكسبير في مسرحيّته، وهي أيضاً حقول الرموز تلك عند بودلير التي يمرّ بها الإنسان «وهي تراقبه بنظرات أليفة».

قبضات ممدودة وقلوب منغلقة

٢٢ تشرين الأوّل ١٩٤٧

لو كانت القبضات الممدودة أقلّ لكانت سُوّيت معضلات البشريّة المسكينة بشكل أفضل ولا ريب. فشريعةُ القبضة الممدودة حلّت محلّ شريعة العين بالعين والسنّ بالسنّ.

إن شرائع هذا الزمن ستقضي حتى على المحبّة. إذ المثل الأعلى النابع منها يقضي بأن يُنزع من كلّ واحد ما يُزعم أنه يتجَاوز الضروريّ، كما لو أمكن كلّ واحد أن يحصل حقّاً على الضروريّ.

لعلّ ڤولتير هو من قال إن الزائد عن الحاجة ضروريّ جداً لأنّه يدع للحرّية وللعواطف التي تسمو بالنفس سبيلاً للانطلاق.

لقد بلغت التشريعات الحصريّة حداً جعل الأخلاق مُعرّضة للخطر في كلّ مكان، وأصبح المشترع هو العدوّ.

إن أولئك الذين لا يرعون للضمير حرمةً هم يحوّلون القوانين الحصريّة الى احتكارات حقيقيّة على حساب الغير. وكلّ الأسواق السوداء شاهدة على ذلك، لأن انتهاك القانون أصبح مفيداً في الغالب.

وما أدّى الى هذا الاّ الفوضى الهائلة في عقول الناس والادّعاء الباطل بتوجيه كلّ نشاط في الحياة البشرية طوعاً أو كرهاً.

وهل بلغ الإنسانُ من النُضج ما يكفي لكي يوجّه كلّ الحياة؟ إن للطبيعة حقوقاً أقوى من أن تنال منها أي شراسة.

بدلَ أن تنغلق القبضات حبّذا لو تنفتح القلوب وتُبسطُ الأيدي ولا يُبعد المثقّفون المتعقّلون معاصريهم، أكثر بقليل، عن الخيرات المادّية عوضَ أن يزيدوهم تعلّقاً بها.

الأيّام التي نعيشها

٢٨ تشرين الأوّل ١٩٤٧

نرانا، في بعض الأيّام، على مسافة متساوية بين الحماسة وحميّاها والسأم ونُعاسه.

أمامنا تفترق الطريق نحو الحقارة أو نحو الظفر. ونتساءل أيّهما خيارنا، خيار الإذعان أم خيار الرجاء. **كثيرون من الناس يعرفون هذا.**

من طبيعتنا، ولا ريب، أن نترجّح دوماً، أن نتقلّب بين طرف وآخر، أن ننطلق من الإحباط الذي تولّده المحنة الى آفاق المستقبل. وهذا يطابق تعاقبَ النهار والليل والساعات المظلمة والضياء. بيد أن آونة التاريخ والحياة التي نمرّ بها على صعيد عالميّ تثير فينا قلقاً أشدّ من أي قلق آخر. وتُبرز بطلان الجهد حيال ضخامة المهامّ. فنطرح على أنفسنا هذا السؤال: هل تستحقُّ النتيجة التافهة التي سنبلغها كلّ ما نعانيه من صراع.

غير أنّ هذا العصر يدعو الإنسان الى السيطرة على وضعه، الى تجاوز المصير الذي رُسم له أصلاً. فهو إن ضاعف قدرته أخرج قوىً مجهولة. وها نحن نرى شعوباً بكاملها تقاوم الحرمان والعذاب وكلّ ضروب البؤس والخوف.

في هذا العالم المسحوق عظمةٌ بطوليّة وتمخّض يتخطّى الولادات المألوفة. فيه مجموع فريد من الروائع والأسرار.

لا بدّ أن يُخطّئَ الزمانُ العقولَ السطحيّة، والأنظمة الهشّة ويُرجع

الضلالَ الى نصابه، فتشرق الحقيقة أبداً بين النجوم.

أمّا نحن ونساهم هنا كالآخرين بالمأساة الذهنيّة والمعنويّة والماديّة التي حُرِّم على كلّ انسان الهروب منها، أما نحن وقد تعوّدنا، بفعل الوراثة، منذ أقدم الأزمان، القيام بالأعمال الحضاريّة والترفّع في آن، فعلينا أن نسمو بأفكارنا ورغباتنا الى مستوى مصير يدنو نوعاً ما من مستوى الكلمات الجديدة التي أُطلقت منذ حوالى ألفي سنة على ضفاف بحيرة الجليل فراحت تنتشر في العالم كلّه.

لنجعلنّ، بملء إرادتنا، من الأعمال التي قد تتعلّق بنا فعل إيمان.

أمثولة السيّد ستافورد كريبس

٤ تشرين الثاني ١٩٤٧

دعا السيد ستافورد كريبس مؤخّراً الإنكليز الى تعزيز صفاء المزاج لديهم والمَرَح، وذلك لكي يسهّل نهضة انكلترة الاقتصاديّة ويهوّن عليهم تحمّل النظام الصارم والقيود التي لا تُحصى وأخيراً لكي يتمّ تنفيذ أوامره الإلزاميّة.

إنها لذّة تفوق متعة الطعام الفاخر حين نرى، في هذه الأيّام العصيبة، علم النفس يهبّ لنجدة الحياة اليوميّة بهذه الدقّة.

يمارسُ وزير الاقتصاد في إنكلترة، الآن، نوعاً من الديكتاتوريّة. وصلاحيّاته تصل الى أبعد حدّ مُمكن في المملكة المتّحدة. ففي سبيل تحقيق برنامج بطوليّ توجّه الى صفاء المزاج لدى الشعب. وأوضح لكلّ فرد ضرورة ارتفاع القلوب لكي تقوى مصاهر الحديد والآلات على العمل والإنتاج ويتضاعف استخراج الفحم من الأرض. هي مسألة ثقة وإيمان.

التفاؤل والشجاعة هما يسيّران العالم، فلا ضرورة لا امتلاك الموارد والعدد والكمّية للفوز متى عظمت طاقة الاحتمال وساد جوّ المرحُ والغناء ونمت القوى كالأزهار في الربيع وتوجّهت نحو الشمس.

إن المستقبل هو للشعوب التي تسلك مثل هذا السبيل، هو للدُول التي يتحلّى جمهورها بحدّة الإدراك وحيث الواجب الجماعيّ يفرض نفسه في جوّ رضى وارتياح.

لا نجاةَ بالنحيب، بل بالنشاط، ولا قيمة لعمل يُمارس بالحزن والإكراه. فالحياة كلّها أصبحت ذاك الصعود اللايُحدّ، ذاك الارتقاء الذي لا يتحقّق الاّ بتجدّد الجهد والترنّم. فمهما اشتدّ الإرهاق لا يجوز التوقّف الاّ لاستئناف الغناء.

إن نتيجة الرفض هي السقوط على حافة الطريق وإغماضة العيون الى الأبد.

الخطب والوقائع

٨ تشرين الثاني ١٩٤٧

مهما قيل ويقال يصعبُ حملُ ذوي المنطق على التفكير بأن الشعب الأميركيّ شعبٌ يُحبّ الحرب.

لقد اطّلعنا وقدّرنا، كسوانا، خطاب السيد مولوتوف أمام مجلس السوڤيات الأعلى ووجدنا فيه ما في كلّ التظاهرات الخطابيّة من هذا النوع: أي وقائع أقلّ من اتّهامات وتأكيدات تثير ولا تُقنع وأخيراً تقريظاً للسلم، رائع البلاغة، لكنّه لا ينطبق على أفعال من هم الآن أسياد السلم والحرب.

ينبغي، في أيامنا، كثيرٌ من المنطق والعقل النقّاد لاستخراج الحقيقة من الخُطب السياسيّة الطنّانة الرنّانة. فالخطَب، التي هي من نوع خطاب السيد مولوتوف تُلقى لكي يتلقّاها الشعب والقارئ المتوسّط بحذافيرها، ولكي يسمعها محترفو السياسة ويطّلعون عليها ويفهمونها بين السطور. وهي موجّهة أوّلاً للاستعمال الخارجي وقد قيسَ وحُدّد بدقّة كلّ ما تحويه من منشّطات وسموم.

بيد أن ثمّة فرقاً بين الاتّحاد السوڤياتي وزبانيّته المباشرة وبين سائر

---

١. «Le Crépuscule des dieux»: رائعة ڤاغنر الموسيقية.

٢. Goering, Ribbentrop: زعيمان ألمانيان في الحرب الكبرى الثاني.

العالم. فخطاب السيد مولوتوف قرأه واستطاع أن يقرأه أناس من جميع البلدان وناقشوه بحرّية، بينما خطابٌ معادلٌ له يُلقيه السيد ترومان أو الجنرال مارشال او السيد أتلي أو السيد تشرشل، مثلاً، لا يدري به الشعب الروسيّ قطّ، لأنّ ليس له الاّ صحافة رسميّة، ولا يقرأ الاّ ما تسمح له به حكومته.

أمّا قضايا السلم فينبغي طبعاً أن تتصدّر اهتمامات العالم. وقد سمعنا مؤخّراً عالماً، حاز جائزة نوبل، يؤكّد أن ثلاث قنابل ذرّية كفيلة بتدمير لندن وعشرين منها بالقضاء على كلّ حياة في ساحل الولايات المتّحدة الشرقيّ. إن مثل هذه التوقّعات يُرعبنا لكنّه يزيد رغبتنا بالسلم وحبّه.

لكي لا نتعرّض لخطر يأتينا من طرف واحد أو من الطرفين معاً فنقع بالنهاية ضحايا هذه الآلات الجهنّمية، يجدر بالقوّتين العُظميين اللتين تتواجهان وتتحدّى إحداهما الأخرى أن تتحلّيا بالحكمة الكافية. ألا يقضي الواجب الأوّل عليهما بأن تنقطعا كلتاهما عن التدخّل، بكل الطرق والوسائل، في شؤون الغير؟

العالم في جنون

١٠ تشرين الثاني ١٩٤٧

هذا القلق الذي يتخبّط فيه العالم هل سيدوم عشرة أعوام بعدُ أم طوال العمر؟

أكثر ما يُخيّبنا هو أننا لا نرى له نهاية.

هل هذا القدر من الأخطاء والحماقات لن يخفّف من وطأته الاّ الموت، الاّ الزوال الطبيعيّ لجيل بكامله؟

طبعاً ثمة أمراض عقليّة، أمراض جماعيّة مجهولة ما، اكتشفها العلم تظهر في بلبلة تتفشّى طوال حقبات مديدة في بلدان بأسرها.

حتى الآلة البشريّة تتعطّل وهذه الظاهرة ليست فرديّة وحسب. فالاضطرابات المتواصلة والآلام الطويلة وضروب الحرمان والهموم التي طالما استعانت بملكات الروح والمادّة العقليّة عند شعب ما والآثار المعنويّة والجسديّة التي تخلّفها دعاوة هدّامة، كلّ هذا ينعكس على طريقة التفكير والعيش.

فالضجيج الذي يتعالى في المُدن والشوارع وأماكن الاجتماعات تسجّله الآذان ويتردّد دويّه النفسيّ والذهنيّ في كلّ مكان.

كما يتفشّى الوباء تنتشر الأفكار الباطلة وتؤدّي الى نتائج حادّة وطوارئ مميتة، فلئن قُضي على الكوليرا، بواسطة العزل، بتدابير فعّالة، بعلاج بطوليّ، يكادُ المرض الآخر يظلّ مجهولاً وهو يجتاز الحيطان ويعبرُ البحار

ويتّسع حتى ينتهي الى شلّ الأجهزة الاجتماعيّة والى الثورة وسفك الدماء.

لا شكّ أن هذا القرن تنتابه الحمّى. وليس التشاؤم ما يدفع الى التحقّق من ذلك، بل على العكس طريقة النظر الواضح للوصول أحياناً الى بذل جهد للمراقبة الذاتية والخلاص.

يتوجّب على كلّ فرد أن يُدرك شذوذ الوسط السياسيّ والاجتماعي أو العائليّ الذي يعيش فيه وعلى أرباب العائلات أن يساهموا في تقديم الاعوجاج (يتّفق لنا أحياناً أن نرى رجال كنيسة أشدّ اضطراباً من سائر الناس في هذا العصر).

السلم هو الهدف النهائي، هو المقياس، هو المثل الأعلى للكنيسة كما الدولة، الكلّ مجتمع إنسانيّ.

إن التفسير الكلاسيكيّ الذي ذكّر به مؤخّراً قداسة البابا بيّوس الثاني عشر، تفسير السلام «بالطمأنينة في النظام» يجبُ أن يُحفر على واجهات المباني العامة في جميع بلدان العالم.

لكنّ الأرض كلّها بعيدة عن هذا مع الأسف! لكن واجب كلّ إنسان هو أن يجعل من هذا التفسير أساس كلّ شيء.

إن بلبلة العقل والحيرة والقلق والخوف كلّها قادت الأمم الى الوضع البائس الذي هي فيه. أما نحن فعلينا أن نسعى في كلّ شيء الى المنطق، الى الاعتدال والصحّة المعنويّة. وينبغي وضع نظام تسلسليّ للقيَم. أمّا الباقي فيُمنح دوماً علاوةً.

ضرر المسارّات

١٧ تشرين الثاني ١٩٤٧

إن عدم التكتّم الذي أساء إساءة كبيرة الى وزير الماليّة في المملكة المتّحدة ينبغي على الثرثارين عندنا أن يتّخذوا منه أمثولة وعبرة. فما بدا شديدَ الخطورة في إنكلترة كان يمكن اعتباره هنا من أكثر الأمور براءة في العالم.

أن يكونَ رجل تميّز بالفطنة والخبرة مثل السيد هيو دالتون قد وقع في التجربة، فهذا دليل على هشاشة طبيعتنا. ولعلّ السيّد دالتون ظنّ أنه لن يُعرّض نفسه لو أسرّ الى صحفيّ صديق بكلام حول الأعراف وصرامتها. لكنّ موقف الصديق كان قتّالاً. وقد أدرك فوراً وزيرُ الماليّة (وكنّا قبل شهور أطرينا أسلوبه الرائع في مجلس العموم حين طرح موازنة الدولة) عواقب الخطأ، فكان فقدان مركزه الرسميّ ثمناً لهذه المسارّة.

ما من شيء يتطلّبُ التكتّم والصمت أكثر مما تتطلّبه شؤون الدولة. ولا عُذرَ للصحفيّين إن أساؤوا استعمال ما يتوافر لديهم من وسائل إعلام. فالفائدة التي تُجنى بإفشاء سرّ خفيّ قد يقابلها ضررٌ لا تُقدّر نتائجه. ولا يجوز، بأيّ ثمن، إطلاع الجمهور المتعطّش الى الأنباء. فشرف الصحفيّ يقتضيه أن يعرف كيف يأخذ بالحسبان ما قد يُسيء الى مصالح الأمّة وما قد يؤذي الجميع وكلّ فرد.

بالاختصار، حين يجبُ أن تصبحَ أمور الدولة علنيّة فلا بدّ أن تنطلق من البرلمان ليعرفها كلّ المواطنين معاً. إنها القاعدة التي تسمح للديمقراطيّات

بأن تحيا. فمن الطبيعيّ جداً أن لا نُنظّم موازنة الدولة في الساحة العامّة وأن لا يُسمح للوزراء، وللموظفين، من حاملي سرّ ما، أن يكشفوه لأيّ كان.

يجب أن يكون لهذه الأمثولة التي أتتنا من إنكلترة أشدّ الوقع عندنا حيث لا يجري أي أمر مهمّ في الدولة الا ولا يعرفه فوراً كلّ إنسان ثم يرويه ويغيّر مضمونه، وحيث أخطر الأشياء تتنزّه في الهواء الطلق.

علينا أن نتعلّم قيمة الصمت.

حول ألمانية

٢٦ تشرين الثاني ١٩٤٧

ليس لأنّ ألمانية مبتورةٌ ومقسّمةٌ، كما هي، يجوز لنا الاعتقاد بأن ملايين الألمان الذين يكتظّون فيها قد زالوا من خريطة العالم. فحين تشنّ المانية الحرب تعرّض الدنيا كلّها للخطر وحين تتماوت تولّد الاختلال في كلّ مكان وتهدّد سلامة أوروبة.

لا يسع أوروبة أن تحيا بلا نهاية، من دون ألمانية حيّة، كما لا يسعها أن تحيا مع ألمانية مستمرّة في التهديد ونزّاعة إلى الحرب.

قد يصعُب على الجنس البشريّ، في كلّ الأحوال، أن يستغني عن أناس لهم كفاءة ممثّلي العلم والصناعة في ألمانية. وها الآن اختصاصيّون من ألمانية المُنسحقة ينشطون لحساب الغير، في بلادهم وأبعد منها، في أميركة، في الاتّحاد السوفياتي وفي إنكلترة. لقد وضعوا أنفسهم، حسب ميولهم، بحرّية أو بإكراه، في خدمة المنتصرين آملين بتجدّد ما. وحسّهم الإبداعي (مع ما يتميّزون به من تمسّك بالانضباط) يتحرّك باتّجاه رغبات انتقام لامباشرة ومتعارضة، وبمرارة لها أبعاد موسيقى واغنر المأساويّة وفي حالة بؤس لا مثيل لها على هذا الصعيد.

لقد أصبح غسق ألمانية ليلة ظلماء. ولا يسعُ أحدٌ أن يجد الكلمات المؤثّرة الكافية التي تظهر كيف يحيون هناك وكيف يموتون.

ففي محاولة لتقرير مصير ألمانية ينعقدُ مؤتمر «الأربعة»[١] في لندن. وهذا المؤتمر الذي أُعدّ له بدقّة، ولكن بجوّ يخلو من التفاؤل، سيكشف عمّا تستطيع الحكمة البشريّة وهي تقاوم الأهواء، أن تقبله أو ترفضه في أوضاع بمثل هذه الخطورة.

هل ستجد ألمانية القديمة بوجهها المُتعدد، جسداً وروحاً من جديد؟ هل ستغرق في هاوية أعمق بعد؟ كلّ التاريخ قوامه تعاقب حروب ومهادنات، ومصائب قديمة العهد، وزوال سلطنات ونشوء سلطنات جديدة.

لولا هذه المآسي لما كان تاريخ أو لما كان منه الآ نزر. بيد أن التاريخ يُعلّم أيضاً أن ثمّة أشكالاً غبيّة تفرّط بالعدالة، وأنه ينبغي أحياناً القبول بالنظر الى ما وراء تصفية حساب صارمة، إلى ما تنتظره البشريّة في مسارها من الجيل الذي يُمثّلها.

١. أميركة، الاتّحاد السوفياتي، إنكلترة، فرنسة.

لأجل زواج ملكيّ

٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٧

من الطبيعيّ أن نوجّه هذا الصباح الى أميرة إنكلترة، التي تعقد قرانها، نوعاً من نشيد تهنئة بالعرس. ولو كانت الأميرة من فرنسة لكنّا وجّهنا اليها هذا الإكرام عينه وبسرور أشدّ. لكنّ فرنسة تشوّشها تلك الصيغة، الكلّية العظمة، صيغة المساواة التي تجعل من كلّ مواطن أميراً ولا تريد أميرات إلاّ عند الغير أو على المسرح.

اليوم إذن تتزوّج الأميرة اليزابت. وإنه ليوم عظيم لها ولكلّ الشعب الطيّب القلب يُذكّر بقصص الكتب المزخرفة القديمة. فبرغم الزمن العصيب والمحن الطويلة والمصاعب الهائلة التي تعانيها انكلترة سيغتبط الإنكليز وجَميع الذين، في قارّات العالم الخمس، يخضعون لسلطة ملك إنكلترة، وكثيرون غيرهم بالحفلات الرائعة التي كرّسها ماض طويل ولها قيمتها في تراث إنكلترة القديمة. فما قد يسمّى، في غير مكانٍ، شكليّات عفّى عليها الزمن تستمرّ في إنكلترة من أجمل وأفتن ما يمكن أن يكون، تستمرّ جانب الحياة المضيء.

سيشاركُ في الموكب كلّ الحزب العماليّ الانكليزي الذي يتولّى السلطة، وسيشعر كلّ فرد من أفراده كأنه في عرس أحد افراد عائلته. ذلك أن إنكلترة عرفت كيف تحافظ على مكانة العائلة في صميم حياتها السياسيّة والاجتماعيّة.

لكي تُعلي إنكلترة شأن الفرد القانع فقط بمطامحه وحقوقه، ما تجاهلت شكل المجتمع الأبسط والأكثر إنسانيّة، هذا الشكل الذي هو في أساس الأمّة بالذات.

لقد أقصت الشيء المتناهي القباحة وهو الحسد الذي يجعل المرء لا يحبّ سعادة الغير. وعرفت كيف تقضي على الشعور الذي يدفعه الى أن يفضّل سقوط الذين نجحوا في حياتهم على الجهد الذي يرفعه بدوره لو قام به حقّاً.

إن إنكلترة اليوم هي أحد البلدان التي يتوجّب على شعبها أن ينتظم ويحرم نفسه أكثر من سواه. هي من البلدان التي السلطة فيها هي القاعدة مع ما تقتضيه من قيود لا تُعدّ. ومع هذا تظلّ بلداً ساكناً معتدلاً يقال فيه كلّ شيء بهدوء، بصوت منخفض، في حلاوة وجود تتداخل فيه، عند كلّ خطوة، الطبيعة والتقاليد، حيث الخضير والأشجار والأزهار عنصرٌ ضروريّ من عناصر الحياة.

ستصبح الأميرة اليزابت ملكة إنكلترة يوماً ما، كما بعض جدّاتها. وفيما يتعنّت كثيرون من الرجال، في بلدان عدّة بإصرارهم على التساوي في كلّ شيء وإبرازهم قبضة اليد، ستكون هي بمنتهى الجلال، في هذا العالم، أصدق رمز للحرّية ولأليق استقلال.

على شرف الأميرة اليزابت، ونحن نستعيد لحن مسيرة زفاف، سنقرأ من جديد اليوم صفحة من شكسبير.

البحث عن السعادة

٢٤ كانون الأوّل ١٩٤٧

إننا ندفع بالسنين كما لو أن كلّ سنة قضيناها سجّلت انتصاراً. ثمّة حالة ذهنيّة لا تخلو من الخفّة تُوهمنا بأن السعادة هي أمامنا وأن المستقبل سيكون أرحم بنا من الماضي. ولكننا نحن نمضي فيما السعادة تنظر الينا وقد اعترتها الدهشة، لأننا لا نمدّ اليها يدنا.

أوّل شروط سعادة، سهلة المنال، هو التأكد من أنها لن تدوم. ومن حماقة عصر، سيّئ التفكير، زعمه أنه يُعلّم «الحق بالسعادة» كما كان الجيل السابق يتحدّث عن «الحق بالحب».

كانوا يوهموننا أن شأنَ الحبّ والسعادة شأن الأموال المنقولة يمكن شراؤهما من السوق (والحصول عليهما بالعنف عند الاقتضاء). وهكذا عاش عالم بأسره على الخداع، وعاش أيضاً على الحلم وعلى الأوهام.

والشرّ ما استنفد سُمّه بعد. وما زال اضطراب الماء يتلاعب بنا جميعاً، بدرجات مختلفة. وعدنا لا نعرف أن ننظّم الحاضر لأننا ننتظر من المستقبل ما لا يستطيع أن يعطيه إيّانا.

بقدر ما ستغدق الحياة علينا من نعَم بقدر ذاك سيصعب علينا مغادرتها. وبقدر ما سيتاح لنا من استمتاع بالملَذّات بقدر ذاك سنتألّم بالروح والجسد. فكم من شعوب بكاملها هي الآن في محنة لأنها ما عرفت أن تكتفي بما كانت تقدّمه لها تقاليدها من حكمة ونور.

والسنونُ تنقضي واحدة بعد واحدة، لامبالية بأهوائنا ولا بأسباب غيظنا.

إن الثروات الحقيقية نمتلكها، ونحبّها من قليل إلى أقلّ. وهي باقية في متناول ايدينا لكننا ما عدنا نستبين وجهها. ونتفانى في العراك عاجزين عن القيام بأيّ شيء غير انتظار ما يمنحنا القدر من هبات وهميّة أو عابرة.

هل تُرانا نتجاوز الحدّ لو توقّفنا، من حين لآخر، عند اعتبارات من هذا النوع لنتساءل ما إذا كان من الأفضل أن نوجّه أفكارنا في غير اتجاه ونحاول أخيراً، عن غير طريق، أن نتآلف مع السعادة أحياناً؟

صلاة للميلاد

ميلاد ١٩٤٧

أين هي أعياد ميلاد طفولتنا؟ أين هي أنوار الماضي على عتبة الليل المائلة الى الزرقة؟ بسبب قلّة إيماننا ابتعدت الملائكة عن أريافنا. رفضت أن تغني للصُمّ.

بالنسبة لنا هذا سنّ النضوج، مساء الأوهام المضيّعة، ها السنّ التي تجعل الأشياء شفّافة. في كلّ ملذّاتنا الآف طعم ملح ورماد وتزايد نسيان وظلال. لكنّ ما يخترق فترات صمتنا انما هو، بلا ريب، نداء اللانهاية.

وفينا نحن أيضاً كبُر طفلُ المغارة، وهو يتلو بصوته الرقيق الخفيض مَثَل الزارع. هو يعدّد التطويباتَ، ويفتّش عن النعجة الضائعة.

بعد أن تُصبح إنسان الفداء فهل ستتركنا، يا ربّ، على حافة الطريق؟ إنك، سنة بعد سنة، تعود بنا الى روعة مهدك وتلقانا من جديد في قافلة المجوس النافذة الصبر. مرّة أخرى، عند منتصف الليل وفوح بخوره وأثناء الصلوات الطقسيّة آست شعبك بشرى «الفرح العظيم»، وهي أروع من أي حكاية إنسانية.

وأي معجزة كان يسعها أن تحلّ محلّ مجيئك؟ دخول الله الهادئ في ملكوته الأرضيّ (ولعلّه عاصمته).

لكن كان لا بدّ من القرية والرعاة والقطيع والإسطبل والطبيعة الطلقة والوضعاء. كان لا بدّ أن يبدأ ملكوتك بعَوز لا تساويه أي فخامة. كان لا

بدّ من الاتّصال المباشر بخليقتك، من إطار السماء والليل اللايحدّ، وأنغام الريح وعطر الحقول والشعر الوحيد الجدير بمجدك.

لقد وُلدت من العذراء مريم. وهل كان أحد يتصوّر وصولك على قرع الطبول ودوي المزامير في أبّهة مراسم إلهية؟ لكنّ عودتك، يا رب، ستكون هكذا حين تمتلئ الأزمنة وحين يسطع حضورك كالبرق من ذروة الفضاء حتى البحر ومن الأفق حتى النجوم.

بميلادك، يا ربّ، إجعل هذا العالم الشائخ يولد بدوره من جديد ويسير على دروبك ويعرف أخيراً سلامك، السلام الوحيد الذي ليس أكذوبة.

مشاريع للعام الجديد

٣ كانون الثاني ١٩٤٨

بين الماضي والمستقبل للساعة الطافية التي نحياها وجه الأشياء الحائرة. لها شكل تلك الغيوم في مهبّ الريح التي قال الشاعر عنها إنها صورة الحياة. قد نحاول نزع الغشاء والتكهّن بالمستقبل، وعلى صعيد الاحتمالات، التوقّف عند بعض أوراق الروزنامة والمراهنة عليها. لكن المفاجآت هي من التواتر ومجال الممكن من السعة بحيث من الأفضل تجنّب وسطاء الوحي حتى ولو في معبد أپولو في دلفي والتصرف كما لو كنّا أسياد المصير.

مهما خبأ المستقبل علينا التصرّف برباطة الجأش التي تشفي الخائفين. فالخوف آفة هذا الزمن. يزعزع كل ما أُقصي عنه الرجاء. يبعد عن المحبة والحبّ في آن. يقضي على الميل المتعقّل الى المخاطرة التي تولّد الأفكار العظيمة والمشاريع العظيمة، ويُلقي بنا أخيراً في ارتباك مرتعد بدل ان يدفعنا على الدروب المجهولة.

ليس العلم، في هذه السنة الجديدة، ما سيُعطي البشر الشجاعة وليس التعليم الذي يتزايد ثقلاً كل يوم سيتوخّى نشر المعرفة، فأكثر الناس اطّلاعاً وعلماً اليوم هم الأشدّ قلقاً، هم من يجتاحهم الشكّ، هم من يجنّنهم علم الإحصاء ويجفّفهم التحليل.

عند عتبة العام الجديد علينا أن نمضي إلى موارد أخرى، إلى ينابيع أخرى، وقد لا يكون بلا فائدة عرض الشعر والموسيقى على من ظلّ يطربه

النغم والصلاة على من لم ينبذ الإيمان كأنه ليس أحلى ما يحتويه التراث البشريّ.

إن المصادر الحقيقيّة لهذه الأيّام التي نعيشها هي في سكينة الروح والحرارة الروحيّة. وهذه الساعة هي ساعة القدّيس فرنسيس الأسيزي وبيتهوڤن.

من انقشاع الغيوم نستطيع أن نؤلّف جوقة ونشيداً.

أمثولة غاندي

١٥ كانون الثاني ١٩٤٨

لكي يبدأ غاندي صومه انتظر «إيحاء الصوت الداخليّ»، إنه فعل رجل تسكنه الروح. هل ستدع الهند والباكستان غاندي يموت؟

عرّض غاندي بحياته لكي يُعيد السلام بين شعبين أخويين. توجّه إلى روحيهما، إلى قلبيهما، إلى أحشائهما. ومن فوق الأفكار الدنسة والنيّات المظلمة، شاء أن يفرض السلام بالصلاة بالإكراه المعنويّ الأسمى نوعاً. أثار الضمائر وصعد إلى مورد الدموع.

صام غاندي مرّات عدة للحصول على ما سعى اليه، وذلك بفعل حبّ. فهل سينجح هذه المرّة؟ أم سيُترك هذا الشيخ الجليل يموت بخيبته وألمه؟

ككلّ ما يُبنى على الروح يرتفع عالياً مثل غاندي بالحالة البشريّة. لكننا أكثر من حبّنا لغاندي نودّ لو نرى شعبين عظيمين، أصابهما الشقاق، يتقاربان ويتعاونان حبّاً بالحكمة والمنطق، فاستقلال الهند الذي لطالما تاق اليه الشعب ها قد استهلّ بأحداث كشمير الأليمة بعد أحداث أخرى.

هكذا بدأت السعادة بتقلّص الوهم وسفك الدماء، وكلّ ما أملت به الأجيال بدا، منذ البدء حافلاً بالمرارة والأسى.

إن غاندي، وهو في غروب حياته، يصوم ليثير مشاعر الناس ويستعطف السماء. وبعد الكثير من الصراع الذي تُوّج بالنصر ها هو يصوم

لأن الموت، بالنسبة اليه، أفضل من المشهد المريع الذي يشهده. وقد برهن بدوره على أن كل ضروب السعادة نسبيّة وعلى أن السعي إلى الراحة باطل على هذه الأرض.

كم من أبطال ماتوا في سبيل حدود توارى حتى ذكرها في مقاطعات ذُوّبت اليوم في كتلة بلا شكل من كتل الأمبراطوريّات؟

«هي تمحو وجه هذا العالم»[1] ولكن لا بدّ أن يُعطي كلّ شيء. أمّا غاندي فسيكون غداً بين الحياة والموت لأن سكّان مقاطعة في أقاصي الهند لا يريدون التصميم على العيش معاً.

١. المقصود قوّة الايمان والصلاة.

انتصار الروح

٢٠ كانون الثاني ١٩٤٨

يخطر لنا أن نعود، بصدد الخلاف في الهند، إلى هذا النصّ المقدّس: «إن شيطاناً من هذا النوع لا يُقهر الاّ بالصوم والصلاة».

انصاع غاندي لإرادة شعبه فوضع حداً لصومه الذي شاركه فيه آلاف الهنود، ولكن ها ثلاثة من عظماء الزعماء السياسيين يقومون بالصوم بدورهم، وفي طليعتهم نهرو نفسه.

ستفعل قوّة الروح والشعور ما كان يحسب مستحيلاً. في ظروف مماثلة يجوز لنا التفكير بأن الصائم في الغرب، مهما بلغت عظمته، قد يترك لشأنه. في نيويورك ربّما، وفي موسكو بصورة أكيدة. وكان بدا فعله البطوليّ تبجّحاً فارغاً ولكان قوبل بالسخرية بدل الإعجاب. ووددنا لو نقترح على السيد تريغف لي[1]، أن يحاول هو أيضاً أن يصوم صوماً مدويّاً لينال السلام أو ليحافظ عليه.

من شواطئ المتوسّط حتى بحر الصين، انطلاقاً من مناخ معيّن، يمكننا بعدُ أن نرى الشعور ينتصر. في حين قلّما عاد يهتزّ الشعور في سائر المناطق.

إن ما يجري في الهند يساهم في السموّ بعصرنا القاتم ويستلفت المؤرّخ

١. زعيم صيني.

في المستقبل. ويجب أن تكتب يوماً «حكاية الشعور هذه في علاقته بالسياسة» لأنها تعليم مفيد وعميق. لكن «السياسة العظمى» المعاصرة، تجهل الشعور. وهي لا تعتدّ بعلم النفس إلاّ لإفساد الناس بالدعاوة. ولو أننا لا نسمع صوت الأب الأقدس الذي يبني كل شيء على الإيمان، على الروح، على حركات النفس، على الصلاة، لما بقي لنا أن نسمع إلاّ صخب المجادلات الاقتصادية التي تعسّر أسباب العيش في كلّ مكان.

إن انتصار غاندي العجوز هو انتصار النفس. والهند تهزّنا هزاً عميقاً حين يصوم زعماؤها ويصلّون من أجل السلام.

مذاهب وسياسات

٢٧ كانون الثاني ١٩٤٨

هل في العودة إلى المسائل الأساسيّة التي تتحكّم بكلّ شيء تفلسفٌ مجرّد وهميّ؟ حيثما كان يطلب من المواطنين أن يتحمّسوا لشؤون الدولة. ولكن لا بدّ من تنويرهم بما فيه الكفاية لكي يميّزوا بين المذاهب البنّاءة ومذاهب البؤس والموت.

قد نفصل، لو شئنا، الكنيسة عن الدولة، ولكن لا يسعنا أن نفصل الله عن الدولة. وحول هذه النقطة الجوهريّة التي توجّه كلّ النشاط البشريّ يجب الرجوع إلى التفكير السليم. إن الناس يتصرّفون بطريقة مختلفة إن كانوا يعتقدون أو لا يعتقدون بعدالة وبدينونة ما بعد الحياة. وطبيعيّ أن تختلف القوانين، إنسانية كانت أم تعسّفية تبعاً للحال، رحومة كانت لحدّ ما أم قاسية رادعة.

يقول مثل عربي: خِف مَن لا يخاف الله. أي علينا أن نخاف من لا رجاء له.

إن لم يكن ثمّة عقاب وثواب بعد الحياة فإن حضارتنا تسقط فينبغي ممارسة الطرق الوحشية لإصلاح هذا العالم وتقويم اعوجاجه، وما همّ عندئذ لو أرهقَ الأقوياء الضعفاء ولو تألم الأبرياء، وازدهرت الأسواق غير المشروعة، ولو عمّ الفساد. وما همّ لو طبّق قانون انتقاء الأفضل، المزعوم، بأفظع قساوة.

لكنّ الرسالة الأبديّة تقول إن عمل الخير يُجازى مضاعفاً مئة مرّة ويجب أن نسعد بالألم في سبيل العدالة ويقول أيضاً: يجب أن نغفر لكي يُغفر لنا. . . وقوانين جميع الأمم وتقاليدها، وقد خرجت من شريعة الانتقام، تأثّرت بهذا طوال قرون. ولو كانت خلاف ذلك لوجب تغييرها.

يُعاني العالم اليوم بلبلة شديدة لأن الناس على اختلاف حادّ حول ما نحن بصدده، ولأن الفوضى تسود أعماق ملايين الأفكار.

ويُخطئ من يعتقد أن التوازن الاجتماعيّ يُحفظ بدون عنف بوجه النظرة العدميّة. ولن يُرجى إبقاء مثل هذا التوازن إلاّ بنظام إرهاب ينشئ استعباداً جديداً. فالفضيلة المادّية، إن لم تعضدها صلابة عظيمة، وهي نادرة جداً، نعرف إلى مَ تؤدّي: كل شيء مسموح شرط أن تجهله الشرطة.

وسط التغيّرات الكثيرة ما من أحد توصّل بعد إلى تغيير طبيعتنا، هذه الطبيعة الهشّة المخيّبة التي تجعل حتى العادل ينتهك القانون ويُخطئ عند كل خطوة، هذه الطبيعة البشريّة التي لن ترتفع الاّ إذا تجرّدت في سبيل مستقبل لانهائيّ.

قدرٌ غاندي

أوّل شباط ١٩٤٨

شُغلت الدنيا كلّها بالتأمل في قدر غاندي. هذا الرجل الذي رفض العنف ذهب ضحيّة العنف. فالوحشيّ الذي اغتاله هاجم الروح، كما يحدثُ دائماً. لقد أهاجت وسائل القلب والصبر متعصّباً صرع ذلك الذي آثر الصوم على الغضب، والصلاة على اللجوء الى السلاح. إن الذي فعل هذه الفعلة المخزية فتى هنديّ دفع به الحقد إلى ان يطلق رصاص مسدّسه على هذا العجوز المُلهم الذي كاد يصبح ظلاً. انها أمثولة عظيمة للذين ما انفكّوا اليوم كما بالأمس وقبله يضطهدون الروح ويجعلون التعصّب الوطني المفرط فوق الخلود والنفس. هكذا كان وما زال قدر الأبرار. ظلّت رسالتهم تضحية لانقاذ الغير.

ينبغي بذلُ الذات والتفاني في خلاص الآخرين. فلنتذكّر الصوت المقدّس الذي أعلن هذا الأمر. وغاندي، إذ اقتدى ضمناً بهذا المثال العظيم، لفظ أنفاسه وهو يتلو كلام الغفران.

لعلّ هذه الميتة الفاجعة تفيد الهند أكثر مما كانت ستفيدها حياة غاندي. لعلّ الطوائف والشيع تتقارب حول قبر الشهيد. ولعلّ أبناء الهندوستان والباكستان والسيخ والمنبوذين وكثيرين غيرهم يكتشفون أمام هذا الموت واجباً عظيماً يؤدّونه.

انه لحزن بليغ يؤلم النفس يحملها على الثورة. فكيف انقطع ذلك

الصوت، وهو بين أسمى الأصوات البشريّة وأرحمها، فعاد لا يسمع. أن هذا الحكيم مع عنزته ومغزله الذي اقتصرت حياته اليوميّة على منتهى البساطة، أظهر بطريقة عيشه بطلان كل بذخ وترف. لقد اختار الأفضل بطريقته الخاصّة.

إن الهند، الشاسعة الأبعاد، تبكي غاندي وستبكيه طويلاً. ونأمل أن لا يؤدّي تنوّع عناصرها إلى تفاقم الصراع الأخويّ القتال غداة هذا الموت الذي كان لوقعه دويّ في العالم كلّه.

ثلوج

٢٠ شباط ١٩٤٨

وأخيراً، سقط الثلج على القمم، ومعه قرّ الشتاء الذي تعادله حرارة القلب. لولا أيّام البرد هذه لكنّا شابهنا بقاع النوم. ولا بدّ من هذه الدعوة إلى الحياة، الى ضربة السوط هذه التي تحرّك الحالمين وتوقظ من اخملتهم اللذة.

بلغ الثلج ثلاثة أمتار في منطقة الأرز، يا للفرح! وعلى الجبال، هذه الرحاب البيضاء، وكلّها طهر وفتوّة، حيث تتمارى الشمس وزرقة السماء.

ان ماضي لبنان ومستقبله ربما ينبغي التفتيش عنهما في الجبل، هناك حيث يتساقط الثلج، هناك حيث تتفجّر الينابيع. فقد ألفت بلادنا مثل هذه المرتفعات لتجيء بهدوء فتستحمّ أخيراً في البحر. ونحوها سترتفع الحياة حين ننظّمها تنظيماً أفضل، حين الصغير والكبير في سبيل تقوية النسل وفضائل النسل، سيحسنان الإفادة من البرد ليس فقط لحفظ الأطعمة، بل لحفظ صحّة الروح والسيطرة على الغرائز السيّئة.

للجبل والبحر عندنا سحرهما في كل فصل. فتلاعب الألوان والريح، بين انتقال شمس وآخر، وتعادل ليل ونهار، يجدّد أبداً مناظرها. إنهما شمس مذهّبة وضياء هادئ. بيد أن هنالك في الشتاء، تحت خفق أجنحة النورس، إيقاعاً موسيقياً كئيباً يجتاحه اخضرار يميل إلى الزرقة حين تعلن

الثلوج عن قدومها لكي تغسل خطايا الجماهير والذنوب الجماعية التي اقترفتها الأمم.

بين الثلوج ومياه الأنهر التي تنتهي الى البحر، ركّز لبنان مصيره وسيدافع عن نفسه ضدّ كل عنف، قانعاً بامتلاكه من جميع الخيرات أولاها: الآفاق البحريّة التي تدعو إلى المعرفة والسفر، والمرتفعات السامقة تحت الثلج التي تُنادي الروح.

صوت القدر

٢٧ شباط ١٩٤٨

يشبه مصير تشيكوسلوڤاكية مصير پولندة. يُعامل البلدان كلاهما كولايتين عسكريّتين على أطراف الأمبراطورية. قبل تسع أو عشر سنوات كانت ألمانية هي التي تتقدّم. أمّا اليوم فدور الاتّحاد السوڤياتي، لأن ألمانية توارت (رغم وجود ستين مليون الماني في الظلمات).

منذ عشر سنوات ألحق هتلر النمسة بألمانية (١٣ اذار ١٩٣٨). وبعد ستة أشهر وجّه الفوهرر إنذاره الى بنيس[١] (٢٦ أيلول ١٩٣٨).

وجعلت المأساة الكلاسيكيّة من رئيس جمهورية تشيكوسلوڤاكية صورة القدر. فبين الشرق والغرب مال بنيس الى الشرق منذ عهد النمسة القديمة. وهذا الميل الذي يعود الى فتوّته يعرّضه اليوم هو وشعبه للخطر ويقضي عليه. ويجدر القول أن بنيس أفرط في ميله لكي يحفظ توازنه فتعرض «للهبوط من النافذة»، هذا الهبوط الذي تميّزت به براغ والذي عانى هو نفسه هذه التجربة الأليمة سنة ١٩٣٨.

يحاول بنيس الآن أن يجنّب بلاده أهوال حرب أهلية، فهو حتماً لا ينام على سرير من ورود. هو يتقهقر محاولاً حفظ ماء الوجه. ونتمنى أن لا يُرغم على التقهقر حتى الحدود.

---

١. Benès: رئيس جمهورية تشيكوسلوڤاكية.

إن أوروبة اليوم مشطورة إلى شطرين، فقد زالت منها صلة الوصل، وهي تشيكوسلوڤاكية حيث استمرّت المفارقة زمناً طويلاً.

وها اليوم الاتّحاد السوڤياتي في قلب القارة فيما أوروبة تتردّد حائرة، تبحث عن نفسها، وتنقسم الى ١٦ دولة، «أصغر أوروبة عرفها التاريخ» كما جاء مؤخّراً على لسان السيد جورج بيدو.

وأقلّ ما يمكن لأوروبة عمله هو أن تتجمّع وتتنظّم لكي تنقذ ما تمثّل من تراث روحيّ وإنسانيّ.

في عصرنا يسير العالم على ايقاع حركات الكواكب، يتهاوى كالنيازك في الفضاء. حتى وقت التفكير ما عاد مسموحاً لمن يتولّون المسؤوليات. فمصيرنا يسبقُ تفكيرنا ... وحكومات الكرة الأرضية هي بين أيدي عدد ضئيل من الناس يتخبّطون ويجهدون نفوسهم.

ثمّة ما يدعو إلى التبصّر والاضطراب. بيد أن التعقيدات التي تبلغ هذه الخطورة هي التي تستدعي خواتم مذهلة. فنحن لسنا من الذين يعتقدون أن العالم هو رهن قواه الذاتية بمنأى عن رقابة عليا تمارس عليه، وأنه مجرّد بؤس جماعيّ تُخلّي عنه.

ينذر الشكل الذي يتمادى كوكبنا في اتّخاذه بدنوّ التفجّر. لكن للتفجّرات أيضاً دلالاتها في السماء. ثمّة ظاهرات متناهية الجلال تشرف على ولادة النجوم.

ولا شكّ أنّ اليوم، حتى في تشيكوسلوڤاكية، أناساً قادرين على ردّة الفعل بدل الاستسلام لليأس.

بدائع التطهير

٢٨ شباط ١٩٤٨

«بدأ التطهير في تشيكوسلوڤاكية»

ما انفكّت أوروبّة، منذ ثلاث سنوات «تطهّر». فما إن انتهت الحرب حتى رأينا بلداً بعد آخر يقضي على قسم من شعبه. فحين يحلّ شكل من أشكال الحكم محلّ آخر، تفتح فوراً ملفّات الدعاوى ومعها معسكرات الاعتقال، وحدّث ولا حرج عن الثأر والنفي والموت.

مسكينة أوروبّة فكلّما انتصر فيها حزب قضى على خصومه بدل أن يقبل بمعارضة طبيعيّة في ظلّ وصايته! مسكينة أوروبّة التي قتل فيها خلال عشرة أعوام أكثر ما قتل طغاة آسية منذ بداية الكون.

تتميّز الأشكال الجديدة التي تتّخذها السلطة بعدم التساهل، بحيث يُمنع الحقّ بالتفكير وإبداء الرأي والتصرّف على خلاف ما تفرضه. وتستأثر باحتكار الحقّ والحقيقة. وتُلغي بضراوة كلّ ما كان يعتبر، طوال عصور، صالحاً وحكيماً. وهذا يحمل على الاعتقاد أنها اكتشفت عالماً جديداً وإنسانيّة مختلفة عن تلك التي تحدّرنا منها منذ بدايات الحياة. وإذا أصحابها يتّخذون تدابير حاسمة بحجّة بناء حاضرة الغد. وإذا هم، في هذا السبيل، لا يتورّعون عن الإهانة والنفي والقتل.

لقد شاء السيد غوتوالد، الرئيس الجديد لحكومة تشيكوسلوڤاكية، أن ينشئ بدوره «**جمهوريّة بلا رجعيّين، بيتاً هنيئاً لكل الشعب العامل**». لكن

في الواقع هو الشعب العامل، بنسبة كبيرة، الذي يعاني البؤس ويقوم بردّ الفعل.

يسهل دائماً تقويل الكلمات ما يُراد بها أن تقول. ولكن لا بدّ من التذكير بأن ما من فعل، أيّا كان نوعه، إلا ويثير ردّة فعل.

«الرجعيّ»، حسب القواميس، هو من ساهم في ردّة فعل سياسيّة، هو إذن معارض وهذا سبب كاف لكي يقضى عليه من دون أن يتمكّن من الدفاع الشرعيّ عن نفسه.

إن السعادة التي يوعد الشعب بها الآن هي، حسب مفهوم صنّاع السعادة الجدد، تفترض الإذعان الصامت. تفترض أن لا حقّ لأحد بأن يناقش أو يبدي رأياً. تفترض ضرورة التآخي، أي الخضوع أو الموت.

ثمّة عقائد أضمن من هذه وأجدر بالاحترام ومن الحكمة التمسّك بها. وثمّة أنواع من اليقين أشدّ رسوخاً يتجاهلها، قصداً، أسياد الساعة في أوروبّة الوسطى كما في أوروبّة الشرقيّة.

إن التطهير من خدائع هذا الزمن وأفظع عليله. ومن المؤسف أن تذكّر هذه اللفظة الفاجعة، الدامية، بالبراءة والطهر.

لا يولد ربيع بإزالة نصف الأعشاب والأزهار في حقل ما. ولا تعزّز الحياة إذا فرضت على العالم نظريّة مبيّسة.

بيد أن للطبيعة وللحقيقة الكلمة الأخيرة. ولكن إن استمرّت الأمور تجري على هذا المنوال فإن منظّري الديمقراطيّة الجديدة لن يتركوا للبشر إلاّ عيونهم لكي يبكوا على شقائهم.

العنف والإيمان

٦ آذار ١٩٤٨

يتحكّم العنف، في أيّامنا، بالأفكار كلّها. يُحطّم بعضها ويدافع عن غيرها بقساوة. **وصارت الشرطة، لا الجامعة، هي التي تنظر بما نفكّر به.**

نُدّد بالقرون الوسطى لأنها قيّدت العقل فحدّت من حرّية التعبير. ولكم تبدو تلك القرون متسامحة متساهلة بالنسبة إلى ما تظهره الحياة المعاصرة لنا.

ثمّة بلدان بكاملها فقدت حقّها بالتفكير كما تشاء. وأصبح الإفصاح عن الشعور، ولو همساً، يعرّض صاحبه للاضطهاد، والنفي والموت. وحلّت المحاكمات العاجلة محلّ عدالة الأمس العامّة وحقوق الدفاع «المقدّسة». والمحاكم التي تفصل في أمور العقل والمنطق محاكم ثوروية. فقد عاد عهد «المتَهمين» ومن يشتبه بهم أنهم كذلك. وفعل التطهير فعله بحيث أن الحرّية الفرديّة في أسوأ حال وتمرّ بأسوأ مراحلها.

تلك هي حالنا رغم الاكتشافات العظيمة. فأروع الآلات قادت إلى هذا السجن في داخل الذات. وأصبح عالم بأسره كأنه قيد احتجاز، فاقد الصوت. ولا تخرج منه إلاّ وجوه كئيبة وآداب رسميّة.

وهذه «العجائب» إن هي إلاّ النتيجة المرهقة التي سبّبتها أشكال السيطرة الحالية، إذ الديمقراطيّة المزيّفة قيّدت الشعراء ودمجت المفكّرين في المجموعة الكبرى وقضت على الأصالة في هويات أبناء الشعب. كانوا

ينعتون القرون الوسطى بالظلماء ويا ما أسطعها بالنسبة لما نشهد. فقد ابتدعت الفروسيّة وسمت بالحب، وبنت الكاتدرائيّات وأعطت الجدليّة كما الإيمان أرفع منابرها. ولا تكاد تذكر مغامرة غاليليو الأليمة بعد قرنين أو ثلاثة قرون حيال ما نراه الآن. فرغم أنف غاليليو صارت الأرض تدور خطأ بعد أن تلطّخت وأصبحت الرؤوس هي التي تدور ولكن في دوخة لا تنتهي.

لقد وُجد هذا البؤس لكي يحلّ عقائد بلا رجاء محلّ عقائد أخرى. وُجد رغبة في قطع الأرض عن مستقبلها وعن اللانهاية.

من الطبيعي ومن العدل أن يرثى لهذه البشريّة الخائرة العزيمة. فالعنف الذي يستبدّ بالأرض ولدّه أدعياء الفكر الحرّ بتشكّكهم المريض وتشيّعهم المقيت.

هبط علينا هذا البناء العظيم.

الذي امعنت يداك الكبيرتان في هدمه ليل نهار.

بيد أن لكل ضروب العنف نهاية، فيما، أمام البداهة، لا بدّ أن يوسّع علماء الرياضيّات والفلك حدود الكون الذي يهيب بأبعاده الهائلة ونظامه اللانهائي بالإنسان أكثر فأكثر بأن يعود إلى تواضع الإيمان.

دفاعاً عن الروحانيّات

٩ آذار ١٩٤٨

لا تشاء الروحانيّات بعد اليوم أن تتجزأ. إن لها، ولا ريب، تراتبها وهي تظهر تنوّع وجوهها، لكنّها تجري من ينبوع واحد، رغم أن الماء الجاري ليس بمثل هذه النقاوة في كلّ مكان.

فالأمطار التي تنهمر والثلوج توفّر لنا الماء الذي يروينا وتجعله في متناول شفاهنا، وهو عكر حيناً وصاف حيناً آخر.

هل ثمّة عقل يفوق عقل البشر؟ هل ثمّة حياة أعلى من حياتهم؟ هل ثمّة قوّة واعية تسيطر عليهم؟ هل هناك انبعاث بعد الموت؟ إذن هذا مجال الروح، والحرارة الصوفيّة التي يجدها الإنسان فيه تتخطّى وهج الشمس. إذن هي القدرة التي صنعت الكون والذرّة ومكّنت من تفتيت الذرّة. إذن هي الفكر الذي ينعكس ويكفي نفسه بنفسه، ويخلق ويصون كلّ ما هو كائن.

بين الماركسيّة التامّة والذين ينبذونها هناك تلك الحماسة وذاك اللانهائي؛ هناك التسليم بالروح أو نكرانها، هناك، في آخر المطاف، الله وخلائق الله غير المنظورة، أي فوق ما تراه أعيننا أو تستطيع أن تراه، السرمديّ وصنيعه.

بما أننا وجدنا بين «الكلّ» و«اللاشيء»، بين اللانهائي والعدم، وجب علينا أن نختار. لذا يتضامن كلّ الذين ينتمون إلى الروح، والروحانيّات

هي، بحدّ ذاتها، واحدة. تلك هي الصيغة الحاليّة لرهان پاسكال.

ترتدي الروحانيّات وجوهاً يؤكّدها الفلاسفة والتاريخ، يدافعون عنها أو يناقشونها، لكنّها واحدة، من حيث هي عبادة الله بوجه رفض الله. إنها النهار أمام الليل. وهي الأبدية. والرجاء أمام الفراغ. وتواجه الروحانيّات النظريّة والماديّة التي تجعل من وحدة المادّة كلّ حقيقة وكلّ حياة.

إن المسيحيّة والإسلام يرفضان الماديّة رفضاً قاطعاً. وحول هذه المسألة الأساسيّة، التي هي أعمق من الكون، يتصافحان ويلتقيان في الحضارة وفي الحبّ.

ولكي تتوقّف العلاقة الأخويّة لا بدّ من التطلّع إلى القلق الذي يساور، في أيّامنا، أولئك الذين يخضعون لسيطرة زمنيّة، ظاهرة أو مستترة، تقسو على تفكيرهم وتحاصر إيمانهم. وهذه الظاهرة هي من الشيوع في عدد كبير من البلدان (حيث السياسة توكل الشرطة بالضمائر) بحيث تثير فينا الاضطراب.

واليوم ما ينبغي حمايته بأيّ ثمن من التراجع هي الحرّيات الشرعيّة واحترام النفس البشريّة. ففيما تعاني الشخصيّة عند العدد الغفير من البشر من الوهن والاختناق، علينا أن ندافع عن شخصيّتنا حتى النهاية.

يترتّب على جميع الذين يرجعون إلى الروح ويرفعون صلاتهم نحو السماء، واجب التعاون، لأنهم جميعهم شهود على جلال السرمديّ.

توجيهات ومثائل

١٠ آذار ١٩٤٨

حين رفض البابا مبدأ الإفراط في التأميم كما في حرّية التبادل المطلقة وهو يتحدّث أمام «المؤتمر الإيطالي حول سياسة المبادلات الدوليّة»، ذكّر، في الوقت عينه، بأن للحياة الاقتصادية، كما للحياة الاجتماعيّة فلسفتها، أي حكمتها.

لا بدّ من توازن عادل. هذا هو معنى الكلام البابويّ. فثمّة حرّيات مشروعة (كما ثمّة استعمال للحقّ وتفريط بالحرّيات). وحين أكّد قداسة الحبر الأعظم «**أن الحرّية الحقيقيّة السليمة لن تكون إلاّ حرّية أناس يشعرون بالتضامن الوثيق في ما بينهم**» أوضح أحد الوجوه الملحّة في واجب كل إنسان تجاه قريبه، واجب كلّ ضمير تجاه كلّ الضمائر.

بقدر ما ينتشر الإدراك ينبغي أن يحدّ من إمكانات الطوارئ والصُدف. وبقدر ما تتّسع الرقابة على النشاط البشري من أجل تنسيق الجهود بقدر ذاك تقتضي مهمّتها الطبيعيّة تأمين توزيع أفضل واستعمال أفضل لخيرات هذا العالم.

تفترض تعاليم الأب الأقدس أن لا يكون الذين يدّعون التوجيه أدنى مستوى من رسالتهم وأن لا يقودوا دفّة السفينة نحو الرصيف الخطر، وأخيراً أن يحترموا الشخصيّة الإنسانيّة ويدعوها تتفتّح كما تتفتّح الطبيعة وهي تغني والزهرة في انفتاحها على الشمس.

إن اشتراكيّة الدولة المطلقة تلتقي التوتاليتاريّة المنافية للإنسانيّة التي زعزعت الكون. فهي، وقد انطلقت من كبرياء بلا حدود وغذاها نوع من النشوة، ألقت بامبراطوريّات في الهاوية على غير رحمة.

أمّا الحريّة القصوى فقد أدّت، من جهّتها، إلى أقصى الفوضى. فالتبادل الحرّ الأعمى قد يسبّب بعد اليوم خللاً تدريجيّاً فاجعاً في أسس الأمّة كما قد تتّخذ إساءة استعمال حق الملكيّة شكلاً أنانيّاً لا يُحتمل.

الحقيقة هي في الاعتدال، هي في الموقع المتوسّط حيث يستقرّ عادة المنطق الذي إذ يراعي الأصليّات والمناخات ويُظهر قيمة حضارة ما.

بين المواضيع التي يعالجها الأب الأقدس في مثائله المتكرّرة، والمأثورة ليس أقلّها شأناً ذلك الذي يحدّد للاقتصاد المعاصر قوانينه المعنويّة ويعلن حقوق الجماعة، وبالوقت عينه حقوق الشخص البشري.

نهاية مؤثّرة

١٢ آذار ١٩٤٨

لا يُعلن نبأ إلاّ وفيه ذكر الصراع بين شطري العالم وفي موت جان مازاريك المأساوي خير دليل. لطالما أطرى محرّرو الأخبار تفاؤل جان مازاريك، لكنّ هذا المتفائل قد ألقى مؤخّراً بنفسه من الطابق الرابع في منزله. ونأمل أن لا يؤدّي كل تفاؤل إلى مثل هذه النهاية!

مع أن جان مازاريك كان صورة من صور الحرّية. وقد حقّق أبوه لتشيكوسلوڤاكية استقلالها. ونذر هو حياته لأجلها. وها هو الآن جثّة هامدة على بلاط حوش لأنه رأى الحرّية تموت. هكذا أشياء هذا العالم المقصورة على هذا العالم، تؤدّي إلى الجحيم. فلكي نتّقي الخوف، في أيّامنا هذه، ينبغي أن نتطلّع بعزم إلى اللامحدود.

لا يفوتنا أن موت جان مازاريك قد أذهل الجانب الغربي من أوروبّة: ودويّ هذا الفعل اليائس ستكون له أصداء أبعد، فهذا الانتحار هو الدليل القاطع على استحالة العيش في جوّ يمنع على الحقيقة أن تتنفّس وعلى الضمير العاديّ أن يتحرّك. ويبدو أن جان مازاريك، وزير خارجيّة بلاده، قد أعلن منذ أيّام ما يلي:

«أنا سجين. وما سأقوله ليس عليكم أن تصدّقوه. لا تصدّقوني بعد الآن». هكذا دافع هذا الرجل عن نفسه بوجه العنف الذي يقضي على القناعة ويسحق الإرادة.

عظماء الديمقراطيّين قبل ربع قرن، في أوروبّة الوسطى والشرقيّة بنوع خاص، أولئك الذين ادّعوا إنقاذ بلادهم من نير النمسة الأمبراطوريّة، أين هم اليوم؟ وأين أبناؤهم بعدهم؟ نراهم ينتحرون حين لا يموتون على أعواد المشانق، كما أرباب الاتّفاقيّة الوطنيّة في الثورة الفرنسيّة ١٧٩٣ . لقد صرعهم حبّ الحرّية .

انتهى جان مازاريك كما انتهى قبله، لحدّ ما، كوندورسيه بعد أن راودته شعلة وهميّة .

لن ينهض العالم من سباته إلاّ متى عاد إلى سلطان الروح . فحين تصبح الحرّية الحقّة، بالنسبة إليه، هي حرّية الروح، ويصبح الجوع الأساسي هو الجوع إلى الحقيقة، قبل الرغيف، عند ذاك فقط يأتي الخلاص .

ربيع

٢٠ آذار ١٩٤٨

بدل أن نستسلم لهاجس قوى الشرّ، يجدر بنا اليوم أن نتذكّر أن الربيع قادم.

تجري الفصول على وتيرة الحياة. فلنغيّر معها مجرى أحلامنا. ولنتجرّد بدورنا من الإنسان القديم، فالطبيعة تدعونا إلى التحوّل.

لا ريب أن لا شيء يضاهي الحياة جدّية ومهابة، كما لا يضاهيها جمالاً. فالربيع سعادة والصيف توثّب والخريف نضوج والشتاء حكمة. ونمرّ بالفصول كالهواء الهارب، ولنا فجرنا وظهيرتنا ومساؤنا والغروب.

غداً يتجدّد الربيع للجميع. وسيشعر الشيوخ والشباب باختلاجة الماويات التي تتهيّأ في الطبيعة. وسيتطلّعون لجهة الشمس وسيعرفون القوى العميقة التي تبعدنا، رغم متاعبنا، عن الحزن والظلام.

لن نتحدّث هذا الصباح حديث الحرب المحتملة النشوب. ولن نجعل الخوف والهمّ يرهقاننا بل سنوقظ فينا الحميّة التي تقينا من ضعف الإيمان والرجاء. ولا يجوز أن ندع الشكّ يجتاحنا أو أن يمضي عقلنا صُعداً في اكتساب المعرفة.

كل ربيع انتصار بحدّ ذاته. إنه الأجراس تُقرع. إنه الغلبة التي لا تحدّ. إنه ذكرى التكوين وتجلّي الصبا الأبديّ.

بيد أن الإنسان وقد أمعن في تشويه وجه الأرض عاد يأبى أن يهتزّ أمام

نداء العجز وسقسقة الينابيع، وخفقات النبات وكل من وما يحيا، وأخيراً أمام نشيد النور.

بعد حين سنعود إلى الأخطار التي تتهدّد العالم. أمّا غداً فلنحصر تفكيرنا بالربيع الذي يعود.

القاضي الصالح

٢٣ آذار ١٩٤٨

في مثل هذه الأيّام، قبل خمسين سنة، شغل الصحافة الفرنسيّة كلّها حكم صدر في شاتو-تييرّي. لقد برأ رئيس المحكمة مانيو امرأة فقيرة دفعها الجوع إلى سرقة رغيف من عند خبّاز.

تبيّن للرئيس مانيو أن على عاتق المتّهمة أمّها وولدها الصغير، فقرّر ما يلي: **يمكن للقاضي بل ينبغي عليه أن يفسّر، بوجه إنسانيّ، أحكام القانون الصارمة. إن من شأن البؤس والجوع أن ينزعا من الكائن البشري بعض حرّية الإرادة بحيث يفتقد نوعاً ما معرفة الخير والشرّ.**

بعد انقضاء خمسين سنة ما زالت حيثيّات هذا الحكم تثير الناس، وتظهر اتّجاه العدالة نحو حقّ القاضي بتأويل القانون وتفسح للشعور ولردّات الفعل الشخصيّة مجالاً بارزاً في تفسير القانون وتوزيع العدالة.

ما زال الرئيس مانيو، وقد شهره هذا الجديد في اجتهاده، يستحقّ أن يذكر اسمه كما فعلنا هذا الصباح.

إذا نظرنا كيف تصرّف الذين يدّعون صداقة الشعب منذ نصف قرن وفي كل مكان تقريباً، وإذا رأينا ما قادوا الجماهير إليه من بؤس معنويّ وماديّ ومن فوضى وتعاسة لتساءلنا هل الإفقار الذي يمارس على العالم حالياً (بحجة المساواة) يخدم القانون أفضل مما تخدمه عدالة الرئيس مانيو الفريدة.

الإفراط بالعدل إفراط بالظلم. فالمرأة الوضيعة التي لم يغفر لها ذنبها بل عُذر، نالت حقّها، إذ قدّر القاضي أنها بدافع الحاجة المرهقة، استطاعت، بدون أن تقترف خطأ، أن تأخذ هذا الرغيف من سلال الخبّاز.

قد توجب الحضارة المثلى على الدولة أن تضع خبزاً في الساحة العامّة، بتصرّف الشعب، بحيث لا يمسّه إلاّ من تعذّر عليه شراؤه. وهذا دليل حسّ معنوي رفيع يتخطّى كلّ تشريع.

لكن الإنسان قد أفسده الطمع. فلو تصرّفت الدولة هذا التصرّف لكان الأقوى هو من يستولي على كل خبزها وإن لم يكن جائعاً.

لا قيمة للقوانين الاجتماعيّة في غياب سموّ النفس!

الحبّ والموت

٢٦ آذار ١٩٤٨

إن شعائر الجمعة الحزينة تنبّه إلى الحدّ الذي قد يبلغه ضلالنا. تذكّر دوماً بمصرع يسوع البارّ.

ذلك الذي ما نسب إليه بيلاطس أي ذنب ومع هذا حكم عليه ليشهد أبداً على سوء عدالتنا. «أنا بريء من دماء هذا الرجل»، قال ذلك الحاكم الروماني وسمح بأن يموت يسوع على الصليب.

ليس في العالم أعجب من رواية هذه الميتة في القدس (حيث تسيل الدماء اليوم مذكّرة بها). لقد تجلّت فيها بداهة التضحية الكلّية المعروفة سلفاً، والمقبولة بحرّية، والمواجهة بعظمة لا مثيل لها، برّرتها رحمة لامتناهية فتحمّلت بجلال إلهي ترافقها حتى النهاية كلمات حبّ وسلام وغفران.

ما عرفت الكرة الأرضيّة في أي مكان وزمان مثيلاً لها. وما يزال نصف البشريّة، عن وعي أو غير وعي، مشدود الأنظار إلى خشبة ذاك الصليب بانتظار القيامة.

السنون والقرون تمرّ والأحكام المسبقة تسقط والمعارف تتضاعف، وحلم الإنسان يتّسع على قدر تكوين هو من الكبر بحيث لا يُدرك.

وفيما أبعد نجمة بين النجوم التي نعرف، وهي على مسافة مليون سنة نور، تبدو وكأنها ليست إلاّ بداية ما زلنا نتّجه نحو الرجاء الأوحد، نحو

الذراعين الممدودتين اللتين تحتويان اللانهائي.

للذين لا يرون إلا الموت في نهاية الحياة أن يستسلموا إلى حزن الروح، إلى ثورات القلب، وأن يمعنوا في قتل الرجاء عند الغير. أمّا نحن فنعتقد أن الموت على صليب الجلجلة كان من مقتضيات الحبّ وتبريراً سامياً للتطهّر الذي يفرضه الحبّ.

حين يعود الكون كلّه إلى أبسط مقاديره، لن يبقى إلاّ هذا الحبّ الذي تلاشى طوعاً في أوّل جمعة حزينة على خشبة الصليب المتوهّجة.

هللوليا، التسبيح للّه

٢٨ آذار ١٩٤٨

عودة قرع الأجراس! الحياة المتوهّجة! الربيع! هل ينبغي أكثر من كلّ هذا لكي يتجدّد الشغف بالعمل. في شرق يفرط في التغنّي بلواعج الهوى ليلاً حان وقت الشمس، شمس آذار ونيسان المبلّلة التي تأبّى العنف.

أليس عجباً أن تحتفي الأرض قاطبة بالقيامة كمحور كلّ شيء. يحتفي بها حتى أولئك الذين اكتفوا بالروحانيّات وما رضخوا للواقع والتاريخ؟

ما من نبأ أعظم من بشرى القيامة وما من حقيقة أشد وقعاً. أوليست المعجزة هي أن يتنفّس المرء ويحيا من جديد ما وراء القبر؟

لا تعمل الطبيعة في تحرّكاتها اللامحسوسة غير هذا. هي تحمل في ذاتها الرموز. لكن ما يبعث الشكّ والدهشة فينا إنما هو الضيق في أنظارنا وفي قلبنا.

نشعر تماماً أن في ذاتنا، في أعماقنا، جزءاً لن يموت.

من دون الأجراس والصلاة فوق رؤوسنا، من دون تضرّع حارّ ما من إنسانيّة تتوثّب حماسة.

من دون هذا التسامي ما من سياسة فعّالة وما من انتصار سياسيّ يزدهر.

أولئك الذين يمعنون في إشاعة اليأس على الأرض إنّما هم مجانين، يُرهقهم علمهم المزعوم، ويولّد التشاؤم في كلّ مكان.

من دون فعل إيمان يتعذّر وجود جمهوريّة تدوم، لا جمهوريّة ولا أمّة.

ولن ينشأ مجتمع هادئ جوّه صاف، من أدب سياسيّ واجتماعيّ كئيب يقتصر على الأغذية الأرضيّة. فالأنماط الذهنيّة الحديثة ما أدّت، كما يرى كلّ منّا، إلاّ إلى سيطرة الأقوى العنيدة.

قد يكون من شأن التجدّد الفصحيّ، إنسانيّاً، أن يزيد من فرص السلام، لأنه الطبيعة بأزهارها وثمارها، لأنه الحصاد الذي يتهيّأ، إنه توقّع رؤية الأهراء المملوءة ونهاية القلق على تحصيل الرغيف. حين يأتي الربيع تدعو الروحانيّات والزمنيّات معاً إلى التنعّم بالحياة.

لكن الأمم تصمّ آذانها. تفضّل تعقيداتها على الطبيعة السائرة، على حاجة الشعوب المتقلقلة إلى السعادة. ذلك أن أشهر المؤسّسات الدوليّة هي الآن كالمتاهة والمسخ فيها يفتقد خيط الكتّان بين أصابع آريان[١] البيض.

مع هذا يُكمل النور طريقه، وهذه الأيّام تستدعي، بحكم المنطق، فعل إيمان. لقد عادت ذكرى القيامة حاسمة أكثر من اكتشافاتنا.

«إن ما رأته عيناي»، قال القديس يوحنّا. «إن ما رأته عيناي» آه ما أبطأ فهمنا ونظرنا!

١. Fil d'Ariane: تقول الأسطورة إن آريان أعطت المسخ خيطاً أمسك به دليلاً للخروج من المتاهة.

بحث عن السعادة (٢)

٣٠ آذار ١٩٤٨

ها الوستاريات[١] قد أزهرت، وفوق المدينة حلّق سربُ لقلاق. وأصباحُ نيسان هذه، الثقيلة الجوّ، تحمل الصيف في أحشائها، تُعلن عنه من خلال ربيع مزاجيّ ما كادَ ينعتق من وطأة آخر الثلوج التي تساقطت على الجبل. إن أعجوبة هذا البلد هي في التوفيق بين المطر والشمس، في اللامبالاة بالفصول. فها كل تويجات الأزهار تتفتّح والنبات كلّه أوشك أن يذرّ قرنه. إنه ترنّم الحياة بوجه قوى الهدم والموت. إنه دليل واضح على التحالف الأبديّ.

بعدما تنضج سنابل القمح، وبعدما تملأ الأهراء، هل سيتخانق الناس بعدُ كالمجانين إرضاء لبعض خطباء هاج هائجهم؟.

على كل اوروبة تصوّب بلاغة موت وتراكيب لغوية تفيض تهديداً. وينفسح المجال للتعريض وللأحابيل حين لا تطلق الشتيمة المكشوفة والقبضة ممدودة يواكبها الصراخ. ففي كل مكان استعدادات لفعل بائس. وأدهى ما في الأمر ان أسياد المذاهب الجديدة لا ينفكون يدّعون البحث عن السعادة!

ألا ترَون كم هي السياسة مريضة وكم بعيدة هي السعادة! وكم

---

١. Glycines.

الكلمات الفارغة والسفسطة تسود الساحة! ما أبعد الشقّة بين أوروبة اليوم ورفاهة العيش في تلك العهود التي نُعتت بالظلماء! فهل البحث الدؤوب عن السعادة على الأرض حوّل اتّجاهه عنها ليتقدّم نحو الجنون؟ إن السعادة الوحيدة الممكنة ستبقى تلك التي يولدّها التجرّد.

إن الثروة الحقيقيّة نجدها حين نتطلّع الى هذا الربيع وإلى الصيف الذي يُطلّ والى هذه الوستاريّات وسربُ اللقلاق والى هذا النور، وحين نملأ منه تفكيرنا وقلبنا ونمتلك حشد الألوان والصور ونرى فيها وجوهاً باهرة تتجاوز الطاقة البشريّة، وننتشي من هذه الخمرة حتى المساء، حتى انقضاء الفصول التي تولّد الزهر والثمر، حتى آخر العمر.

ما من سياسة صالحة الا تلك التي تُدخل في شرائعها الخلقَ وشؤون النفس وتبشّر بالقيامة.

ألا يهنأ المتشرّد حين يقف أمام منزل مضياف أكثر مما يهنأ بكل ما تقدّمه له الماركسيّة مجتمعة! إنها في كل فصل عندنا أمثولة الطبيعة، وهي أمثولة أناس ما اقترفوا خطأ الابتعاد عنها تماماً.

الحديقة تحت المطر

١٦ نيسان ١٩٤٨

عذبٌ كوعد بالسعادة هذا الرُذاذ في نيسان يسقط من فضاء رماديّ فيه كوىً فسيحة زرقاء، فتفعل فينا نزوات الماء الأخيرة هذه فعل النشوة. الحدَيقة يغمُرها البلل. والأذاريون والقلنسويات[1] تزهو جمالاً، وأزهارٌ تمّ السمكةً ارتوت ما وسَعها، والأعشاب البريّة تفيض عطراً. كلّ هذا يفوح شذاه في طبيعة مُثلَى تُضفي علينا جوّاً من النعمة. كلّ فتنة هذا الربيع لا تُكتشف الا بالدنوّ منه. ولا بدّ من الوقوف عند نافذته لكي تنجلي الرؤية. ولا بدّ من الهبوط على دَرَجات الدرج العتيق المصدّع. لا بدّ من التقدّم على مهل في المسالك الصغيرة، مثل هذه العظاية السعيدة، المرصّعة بالزمرّد وهي لا تدري ما هو.

لماذا تُهشّم هكذا حياتنا وفيها ما فيها من رموز وصور؟ هلاّ عُلّم الأولاد ما يجهله الراشدون وينبغي أن يعرفوه هم، أي إن خزّان كلّ شيء ما زال هذه الطبيعة التي يبعدنا عنها نمط حياة سخيفة وطغيان تعليم محصور الأفق؟

في صباح كهذا ينبغي أن يمضي جميع الناس الى الحقول والامتلاء من النسائم والنور، ومداعبة الخنشار والطحالب، وتذكّر أسماء الشُتول

---

١. أزهار les soucis et les capucines.

والزهور وسُبحة هذه الروائع الصغيرة التي تبهر العالم النباتيّ والتي متى جَفّت وماتت حُفظت، حبّاً لنا، في بواقيل الصيادلة. ذلك أن هذه الطبيعة المبلّلة لا تكتفي بإبهارنا، بل هي تحمل في باطنها بلاسم وأسراراً. هي تغمرنا بمودّات تنبع من الأصول، وببوادر شفقة تُنتج الأدوية الفعّالة والمراهم العجيبة. ولا وجودَ لشرّ الاّ في الانسان،

ألم تُتخمنا بعدُ الأعمال والمُعضلات؟ ها قد حان وقت الصور والصمت. ونحن نعرف جيّداً أن هذه البشريّة الشاردة في ضلالها لن نشفيها ولا نقوى الاّ على القليل بوجه كثرة المصائب التي تولّدها. نعرفها فريسةَ المطامع والشهوات، وقد قسّاها استمرار اللامبالاة، وتيّهتها الأهواء، وأرهقتها الملذّات، لكنّ موارد السلام التي تكاد تكون إلهيّة ما تزال فيَ متناولنا، ويكفي لاكتشافها أن نتأثر بها ونذهب لرؤيتها لكي ندنو من السعادة.

سنعودُ غداً الى الحكم بإعادة بناء الجمهوريّات وآداب السلوك والحاضرات. أمّا اليوم فلننصرف الى بهجة الرجوع الى الينابيع، الينابيع الحقيقية التي صفاؤها يُنعش لا إلى صهاريج الماء الميت حيثُ لا نعرف قط إذا كان عابرُ طريق في الليل لم يُلقِ فيه سموماً.

سياسة على قياس العالم

٢٧ نيسان ١٩٤٨

يُسرع التحرّك الذي قد يؤول الى ولادة أوروبة متّحدة. ففي جميع عواصم الغرب (وفي بعض عواصم أخرى) تكبّ الحكومات المتيقّظة على معالجة المعضلة الأولى في هذا الزمن. وهي الأولى حقّاً. مع أن المظاهر قد تموقع في مكان آخر الدولة الكبرى من حيث القوة والثروة. ولكن بوجه الأنماط الثورية الجديدة يظلّ الفكر الأوروبيّ مصدر الخميرة فهو الذي سيجعلُ التوازن او الاختلال بالنهاية.

إن كل القارة الأميركية هي، من حيث الثقافة، ابنة إنكلترة وفرنسة وإسبانية والبرتغال مروراً بايطالية واليونان. فاللغات التي سيتكلّم بها أبناؤها والمذاهب الدينية التي يمارسونها هي لغات ومذاهب اوروبة هذه التي تشرف واجهتها على المُحيط الأطلسيّ.

هو ألمانيّ من تحدّث عن «القارة الأوروبيّة الجليلة» في مؤتمر الكنائس في سبيل الوحدة الأوروبية الذي انعقد في لندن. أمّا آسية فهي تتذكر أكثر من سواها أنها ولّدت العالم الآريّ.

بالحركة الهادفة الى خلاص الحضارات يلتزم محيط البحر المتوسط كلّه مع الشرق الأدنى والشرق الأوسط وحتى آسية الجنوبيّة، تلتزم بها كل مصادر الحياة الروحية وكل المعتقدات بعالم يفوق الطبيعة، بخلود النفس، بحضارة مؤسسة على الأزليّ واللانهائي.

من فوق آفاقنا الضيّقة، من فوق نزاعاتنا العقيمة، يبدو ان الالوهة ذاتها تتحرك وتسمح بهذا الصراع الأعمى الذي تقوم به البشرية في سبيل خبز غير ذاك الذي يغذّي الجسد، في سبيل مثل أعلى غير مثل الإقتصاد السياسيّ المحدود بأبعاده وحدَها.

وهذا يفسّر لماذا تلتقي الآن كل الروحانيّات أو تحاول أن تلتقي أو تصبو الى هذه اللحمة التي لها معنى صراع الحياة ضد الموت.

ان منتصف القرن العشرين يستدعي الافكار والنظرات العامة كضرورة يوميّة، هو يفرض سمواً في الروح وجهداً مستمراً يُبذل في الاستنتاج والفهم. فكلّ قوى هذه الأرض، الغافية أحياناً منذ أجيال، قد استيقظت وتحركت، إنطلاقاً من الأعماق، **ثمة ظاهرات تنبئ بأن القرن المقبل سيراها تتطور على وتيرة لا تتخيّلها**.

في وضع كوكبنا الراهن لا يبدو انه يسع البشريّة الاّ أن تزيدَ بعدُ من السرعة التي سيطرت عليها. فهل ستعرف كيف تراقبها وتراقب نفسها حتى النهاية؟

تشكل أوروبة المتّحدة مرحلة ضرورية على طريق المصير الجماعيّ. فلنحييّ مرة أخرى ولادتها، ونحن نتذكّر أن الشّرق مدعو ليولدَ من جديد معها إذا لم يشأ أن يكون الثغرة في السور.

إلى صديق غيّبه الموت

٥ آيّار ١٩٤٨

في غمرة أحداث الحياة الجارية استأثر خبر وفاة صديق قديم بأفكارنا. وقعه علينا وقع الكلمة على الوجه، فاذا بنا نخرج من عالم الأوهام لندخل في الواقع. في الحقيقة إن هذا الرحيل المحتّم وهذه الصدمات المنتظمة انتظام حركة الكواكب لا نعود، بفعل ملكة النسيان فينا، نعرف ان نتوقعّها.

إن السياسة والمجادلات والأعمال وحركة الافكار والأشياء، كل هذا يستحوز علينا حتى اللحظة التي ينسلخ فيها عنا شخص تعلّقنا به. حينذاك ندرك ان كل شيء على زوال، ونفتح أعيننا على الهاوية التي نراقب اطرافها ولا ندري انها تنادينا.

آه كم ينبغي من التوازن للتمكن من الصمود بين ضرورة الاستمرار بالعمل وفكرة التخليّ عن كل شيء.

طوال خمس وثلاثين او أربعين سنة، اتّفق لك أن صادقت أحدهم صداقة حارّة بادلك إيّاها. وان أحصيت ذكرياتك وان عدت الى مراحل ماضيك كدت تجده حيثما كان في الفرح كما في الألم، ثم تضطر فجأة أن تنقطع عن حوار أليف، عن خفقات قلب ملحّة، عن متعة حديث تناهى حناناً، عن امكانات وفاء لا تُرى لها حَدودٌ.

هي العقبة التي نصطدم بها حين نتحمّس للصراع، حين نمضي في مواجهة الشمس وعلى مُنعطف الطريق نُفاجأ برسول يُريدنا أن نتوقف

فيوقف قلبنا.

لكن ما وراء الظلام، ثمّة شعلة تستمرّ، ثمة حضور نعزّزه لأنه يطابق حقيقة حيّة.

يا ما أشدّ حاجة أولئك الذين فقدوا الرجاء، الى الشفقة!

حول بعض أفنان خزامى

٦ تموز ١٩٤٨

عطّرت بواكير الخزامى الزاهرة وجهاً محبوباً. في الحرارة المُحرقة التي نشهدها في شهر أيلول المخادع، الذي كان بالغ الطراءة قبل ثلاثة أيّام، هبّ نسيم المساء تحت النجوم فأحيا ذكريات:

ان عودة زهرة تُحيي شواعر راقدة، وبواكير الخزامى (اللاونده) وبواكير الأضاليا توقظ فينا، سنة فسنّة، مودّات وأهواء.

هي معالم على الدرب الطويل، على طريق العودات، طريق الصبر والحلم. ثمة قرابات خفيّة بين عالم الأموات وعالم الأزهار، بين الظلال والألوان والانغام، وكلّ ما كان يُثير حميتنا او يهزنا وحسب.

وهكذا تظلّ أحداث حياتنا مرتبطة برموز. ثمّة زهرة تذكّر بحالة نفسيّة وضوء قمر يتصل بنبضات قلب، وحروق الشمس المتأججة لهباً تعطي صورة عن غير حروق. ونشيد الزيزان يعيد الى الذاكرة عهد الطفولة في سرّ زرقة السماء.

ورائحة صمغ الصنوبر على طرف الأصابع تذكّر باضطراب قديم. والمناظر الطبيعية التي استأثرت بأنظارنا لحظة تولّد فينا أحزان أولمبيو[1] وقد تجدّدت أنغاماً تهزّنا هزّاً.

١. «Tristesse d'Olympio»: اشارة الى رائعة فكتور هوغو في تذكار حبّ قديم.

لا بدّ ان يكون قد اعترانا النسيان الذي لا يحيي فينا كل يوم من أيامنا أياماً أخرى مملؤة بالصور وغنيّة بالجوهر، لأننا نولي اللاوعي والنوم القسط الأكبر من حياتنا المضطربة أحياناً.

إن ثلاثة أفنان من الخزامى قُطفت هذا الصباح، والأزرق والأخضر فيها يُحاكيان عُمق البحر، هي أهمّ، بنظرنا، من سلسلة حروب أو من مُلك ذائع الصيت. وهي أهمّ، على صعيد حياتنا الداخليّة، لأنها تجعل من كلّ منّا عالماً وتحملنا على التعلّق بما هو إنسانيّ وعلى ابتغاء ما هو أبديّ.

لكي يكون للحياة معنى

١٦ تموز ١٩٤٨

تسمعون البوقَ من بعيد وتحسبون أن الألحان الحربيّة التي تحملها الريح اليكم ستوقظ بعض الخدر! انه السبات العميق عينه وذات اللامبالاة بالحياة.

ذلك ان ما ندعوه الحياة عاد لا يطابق في شيء تدفّق الحيوية الرائع الذي يكوّن ما هو حقيقي وحيّ. وحدها عادت تلك السلسلة من العادات الحزينة تحملنا في الساعات عينها وفي اللحظات عينها على القيام بذات الحركات وعلى الرجوع الى ذات التفاصيل مع انتظام الأيام المخيف. فاقل تغيير يقلقنا. وأقلّ جديد يجعلنا في حيرة. وما أن نخرج من الروتينيّات التي تتملّكنا حتى نودّ العودة اليها كما الحشرة التي ابعدناها، بنقفة، عن طريقها فدفعتها الغريزة الحتمية الى الرجوع اليه بإصرار.

وقد أصبح البوق الصباحيّ عينه عادة طويلة الأمد، شبيهة بالمنبّه الذي يطنّ ونوقفه آلياً باصبع تتحسّسه، لكي لا يستمر في صوته الحادّ الذي يريدنا ان نعمل اليوم ما عملناه أمس وسنعمله غداً من جديد.

ان أناس هذا الزمن لعلى خلاف مع الحياة، على خلاف مع السعادة الخارقة التي هي الحياة أمام ضخامة الفراغ والغياب، مع خفقان كلّ شيء عجيب، في الحركة الأبديّة.

والجوّال عينه الذي هدفه السير وأمله الانتشاء من الاكتشافات، يبدو

اليوم وكأنه ضيّع طريقه.

أصبحنا آلات بدون روح بمعنى ان نوعاً من الخبل قد استولى على البشر نازعاً من المخيّلة قدرتها ومن الصور الوانها ومغرقاً الموسيقى في الصخب والعقل في كسل الحكم المُسبق واللامبالاة.

ما حلّ بحبّ التحمّس والعمل؟ وبالمعجزة التي تجعل من الإنسان المالك المميّز للحدس وسيّد العقل؟ في هذه الحالة لا تساوي كلّ الأبواق زقزقة عصفور، صوت الكائن الصغير المجنّح الذي يمضي، وهو يرقص، من شجرة او من حديقة الى اخرى ولا يتوقف عن الطيران الا ليموت.

يبدو أن هذا الجيل الذي سحقته المادّة لن يوقظه أي طبل. فقد أصيب في روحه. فالفجر والغسق لديه سيّان وهو، بدل ان يستقرّ في الحياة كما في مكان غزاه، لا ينفك يفرّ منها.

عدنا لا نجدُ حبّ الحياة الاّ عند باعة الأمل، عند أولئك الذين يرتضون العطاء من دون مُقابل، ودورُهم، في جمودهم الظاهر، هو الاستمرار في السير.

لكي ترتفع السياسة

٥ آب ١٩٤٨

ما من سبيل بعدُ لرفع مستوى السياسة الاّ بارتفاع النفس. فمنذ سلك الشعر، الصافي، الحقيقي دروب المنفى، ومنذ ازدراه هذا العالم الخشن، القاسيّ، منذ انقطعت الصلاة عن الإزهار الكافي على الشفاه البشريّة، خرّت آداب السلوك والبسالات معاً. تصوّروا ان الصلاة قد ماتت بالنسبة للحكومات الماديّة المذهب التي لا تتغاضى عنها الاّ بدافع فعل سياسيّ خبيث فيما هي تضطهدها سراً.

إذا بطلُ الصوت البشريّ ان يرتفع نحو السماء، خلت الساحة، مع الألم الذي يتزايد، للبغض واليأس. وهذا ما جعل العنف سيّداً والحكومات تسيء استعمال السلطة او تجهل واجباتها، وعدداً كبيراً من الجمهوريّات المزدهرة في الأمس القريب، توشك على الانهيار.

وها هوذا الفنّ عينه، في انتفاء مبررات الحياة، يهبط الى الحضيض، الفنّ الذي قوامه نور وحبّ. وها هي الروائع تندر أكثر فأكثر والموسيقى يصيبها الفقر. وخفت صراخ القلب فعاد لا يسمع. وتحجّب جلال الايمان الخلاّق والمنقذ، ولم يبق، حتى على عتبة الهياكل، الاّ الصراع في سبيل الحياة، صراع الحيوان المطوّق وقد ضوّره الجوع.

لئن لم نُصَب كغيرنا بهذه الآفة فإننا لسنا بمنعة منها. فقوانا للمقاومة ما عادت كما كانت سواء أنكرنا هذا الواقع أم سلمنّا به.

بالنسبة للّذين يملكون حانت ساعة التعليم المباشر، **ساعة المثل الصالح**. ذلك أن الإنسان يوجّه الآخرين حسب تصرّفه هو. والطريقة التي يقاد بها الغير لا يمكنها ان تكون الا انعكاساً لنا، فأسلوبنا يكمن في أفعالنا.

إن مصدر مأساة أوروبة والعالم هو في نزاعات النفس والعقل. ومفاعليها المنظورة هي تعابير انحطاط وتفسّخ.

أمام المدّ الصاعد حان لنا أن نُحدّث شعبنا أولاً عن الفضائل الأساسيّة التي تصنع الأمم.

الصوم والفرح

٦ آب ١٩٤٨

الصومُ هو أيضاً صلاة؛ وصومُ الإسلام كصوم المسيحيّة إجلال للخالق الأزليّ. هو زمن يبدو فيه غذاء الروح أفضل من غذاء الجسد، فتسمو الأفكار ويتخطّى الانشغال باللانهائي الانشغال بالزمنيّ.

بعد ان طال افراطنا في طلب خبز الجسد كان من الطبيعيّ ان تتغلّب حاجات الروح وان يدعم أفكارنا طعام من كنُه آخر.

لقد جعل الاسلام في بدايته الصوم متحركاً طوال النهرُ الحارقة في الجزيرة العربيّة لأن طراءة الليالي هناك لا تدعو الى النوم بقدر ما تدعو الى التأمّل والحلم.

هي الحاجة الى التوازن التي جعلت الصوم والقطاعة، هي ضرورة تخفيف وزن الجسم الثقيل لكي يقوى على التقدّم برشاقة نحو الاله.

لو أن الاعتدال والمحبة توافرا بصورة أفضل لكانت تدخلات الدولة (وهي عقيمة في الغالب) قد اصبحت بدون جدوى حين تفرضها لتأمين مساواة في التقشف واحقاق العدالة.

لمّا زال لدى البشريّة الإقبالُ على الصوم **بحريّة** فانها اليوم تصوم **مرغمة** بهذا الشكل العنيف.

إن الخطايا التي نُقترف بحقّ الروح تنعكس عواقبها على الجسد. فحيثما تجوّع الروح ينتهي الجسد هو ايضاً الى الموت جوعاً.

من الطبيعيّ، بعد مرحلة التقشف، أن يأتي دورُ مرحلة الراحة والفرح، فالأعياد التي تعقب الصيامات هي طبيعية كمسيرة الأيّام. ثمّة فصول للتأملّ والصمت وفصول تترنّم فيها الطبيعة وتتجلىّ الحياة.

والمرء، لعمري، بحاجة الى هذه وتلك. ينبغي له خريف العودة الى الذات وربيع تدفّق الحيويّة وشتاء التقشّف وصيف الثمار الناضجة، فهو ان انقطع عن الغذاء مات وان فرّط به مات كذلك.

إن الاعتدال سنّة الحياة.

حول الحرّية

٧ آب ١٩٤٨

من العدل أن تُخصَّ الحريّةُ بأيّام الصيف هذه حيث النور ثابت والنهار يطول، ونقصد الحريّة في النظام وهي شرف وقوّة، الحريّة دليل وعي الانسان التي تسوّغ خياره الصحيح متى عني بها.

اذا جُرِّد أحدٌ من حريته، وهو جدير بها، فكأنه حُرِمَ التنفّس وقضي على حياته. كان لا بدّ من رجعة الى زمن يشبه أظلم الأزمنة لكي يُقدم الناس، بالملايين، ولهم خبرة طويلة بالكرامة الانسانية، على التخلّي بجبن عن هذا الحقّ المقدّس بالتقدير والتفضيل وبنذر الفكر والقلب لهذا الحبّ دون ذاك.

بعد أن استولت نشوة ظلماء، منذ سنوات، على الجماهير فجلعتها تتقبّل النُظم التوتاليتاريّة، وكأنها أحدث ما أقرّه التشريع الاجتماعيّ، وكأنها طريق السعادة، لا يسعنا أن نفكّر بهذا ولا نضطرب.

تسلّمون هكذا بأن رجلاً، جبل من طينتكم، يفكّر عنكم، يعمل عنكم، ينهاكم عن التفكير والعمل او يأمركم بهما.

وترتضون مثل هذا التخليّ الذي يفضي الى قتل الارادات والعودة بالنفوس المتفتحة الى عهد طاعة الطفولة.

وليُفهم جيداً ما نقول! نحن أولّ من يؤمن بضرورة القيادة وبفضيلة القيادة. لكنّ ما ندافع عنه هو عكس الفوضى، هو تقبّل السلطة الشرعية

عن طريق الحريّات الشرعيّة. وما نريد أن نُشيد به انما هو احترام الإنسان. وما نستنكره هو الانحطاط شيمة، الروح المستعبدة.

ليسوا جديرين بالرئاسة رؤساءٌ، أينما حكموا، لا يكون همّهم تنوير العقول باستمرار، رؤساء يتوسّلون الحكم ليخدّروا في الانسان ما يميّزه عن البهيمة. فهذه الأساليب تحمل علامة الإعماء والاستبداد. إنهم بحجة استتباب الأمن يصيبون الانسان في نفسه ويعاكسون ذلك السير الصاعد الذي ميّز به الخالق الانسان حيال الطبيعة التي جعلها تحت سلطانه.

توقظ شمس الصيف على القمم الشغف بالحرية بصورة عجيبة، وتوسع الوعي حتى حدود الأفق وترخي، في تصاعدها، بظلّ الانسان على الجبل.

إن أوّل وآخر مبرّرات وجود لبنان هما هذه الحريّة، شرط العظمة وطريقها، هذه الحريّة الواعية النظم الضرورية، لكنها المصممة على رفض القيود غير المشروعة والتي تعرف ان ترغب بالنظام لا أن تكابده.

بقدر ما تتراكب طبقات اجتماعيّة جديدة فوق القديمة يجب أن يُعطى الشعب نوراً أكثر وتُبيّن له الأخطار التي يتعرّض له ويُشرح له معنى مَهمّته بشكل أفضل.

كلام حول العمل

١٢ آب ١٩٤٨

لا بدّ أن يُعادَ النظرُ في كل مفهوم العمل.

حين نرى حشداً من أرباب العائلات ينتمون الى الطبقة المتوسطة يعملون ثمانين ساعة في الأسبوع تأمينا لأسباب عيشهم نتساءل ماذا يُفهم حقاً بالطبقات العاملة، بعد ان أصبح العمل الذهني أصعب من العمل اليدويّ.

ثمة حكم مسبق، فريد بنوعه، حصر العمل الحقيقيّ بالعمل اليدويّ، بينما النشاط الشديد، وهو من نوع آخر، يورّط الجسم بكامله ويرهق صاحبه حتى المساء، يُعتبر ترفاً وموضوع بحث او هواية أسياد.

في القاموس فيض من هذه التقريبيّات وهذه التشويهات للمعاني. ذلك أنه ما من عمل حقير الاّ عمل المتملقين والطفيليّين، اولئك، كباراً كانوا ام صغاراً، الذين ينتظرون من ممارسة الدناءة والتملّق الحصول على نعِم الغير وهباتهم.

في ما عدا هذا لكلّ الأعمال عظمتها وهي تسمو بالنفس وتستحق الاحترام، مع أن عصرنا قد أخضع البشريّة كلّها الى نظام الأشغال الشاقّة بحجّة دفعها الى التقدّم وتجميلها.

لم يُعد الانسان يعمل بحرية، بل بالأكراه. وما يعمله في الغالب هو ما يُفرض عليه لا ما يفضّله أو يُحبّه. والادّخار، دليل الاحتراس، وبمعنى ما

دليل ايثار تدينه المناسبات والوقائع حين لا تدينه القوانين.

في الواقع تنزع الطبقات الاجتماعية الى التلاقي. بعضها يرقى وبعضها الآخر يهبط. ولم يعد ثمة ما يمنع الناس، من خلال التنوع الهائل في اعمالهم، من ان يتصافحوا ويتعايشوا متشاركين في السرّاء والضرّاء.

لكن حان أن يوضّح مفهوم العمل وأن يُحمل عمل العقل محمل الحقيقة أي كعمل جديّ، غير منظور، هو أشقّ من العمل اليدويّ.

إن عمل الرسّام والنحّات وحتى الموسيقي هو أيضاً عمل يدويّ، يتداخل فيه، كل لحظة، العقل حتماً والخيال والشعور والفنّ، بينما كثيرون من العاملين في التجارة والصناعة يعتبرون عمالاً كادحين وهم لا يكادون يعملون بأيديهم.

في الحقيقة كل نشاط هو نوع من عمل بدءاً بجهد المفكّر، رغم عدم تحرّكه، فهو يُتعب دماغه بحيث يجري دمه بسرعة تفوق سرعة العدّاء.

لم يعمل الناس قطّ في ما مضى، وفي مختلف طبقاتهم، كما يعملون اليوم. وبقدَر ما تعظم المسؤوليات ويستيقظ الحسّ المهنيّ يزيد الفضل.

بديهيّ بالنسبة لجميع الناس أنهم إن لم يعملوا شيئاً طوال حياتهم يموتون غمّاً أو جوعاً.

فنّ شعريّ لرجل الأعمال

١٨ آب ١٩٤٨

جعل قمر آب، البالغ الصفاء، كل سماء الجنوب في دائرة المجرّة. وجدّد شباب رائعة بتهوفن «في ضوء القمر».

بدت الجبال شديدة السواد على الأفق الشفّاف، كأنها تماوجات ظلال فسيحة في ابيضاض ليل يأبى الرقاد. وأفكارنا، وقد حدّها سقف هالة القمر العظيم، انطلقت شمالاً نحو النجوم.

لكم تدعو ليالي الصيف هذه إلى الحلم، ولكم يتوضّح فهمنا، حين نتأملها، لشكسبير[1] وعالمه الخاصّ. وكلّ الروعة تجسّدت في الوادي حيث تجمّع الضباب. وفي كل مكان رقصت أشكال بدون أجسام.

لا بدّ من مثل هذه الليالي لكي تحرّر ارواح الأثير وتعيد وصل الإنسان بما لا تراه عيناه.

مهما يكن النشاط البشريّ شاقّاً ومحموماً فهل ينبغي حقّاً أن يحول دون التجرّد والحلم؟

على إنسان اليوم، حين يصحو وقبل أن يذهب إلى عمله الذي هو تعب بدلَ أن يكون فرحاً، أن يتمتّع باستعادة صُوَر فجر نقيّ الطويّة، ونشوة ليل جميل.

---

١. اشارة إلى مسرحيّة شكسبير «حلم ليلة صيف».

هل إن الخلاف بين العمل البشريّ في هذا الزمن وبين الشعر الخالد بلغ من الشدّة بحيث حرمنا أن نضفي على جهدنا جوّاً مريحاً في غمرة الصُوَر وأناشيد اللانهاية؟ لكن الحياة الكئيبة التي نغرق فيها تسحقنا. وعاداتنا التافهة تعمل فينا منذ الصباح عمل المطفأة فوق رؤوسنا.

هذا «النزول إلى الاعمال» ما تحدثنا عنه فيما سبق إلاّ تذكيراً بالنزول إلى الجحيم. فعند عتبة المكاتب حيث تمارس الأعمال تزول السعادة وتتوارى طهارة النيّات ومعها الشغف بالوضوح وبالجمال. ولا يبقى إلاّ السعي إلى الكسب والاثراء، كما لو أن الاثراء الحقيقي ليس في الارتقاء بالنفس.

لو كنّا نعيش في بلد تخلو طبيعته من المجد، لكنّا عُذرنا، ولكن أيحقّ لنا أن نُصرّ على إغماض العيون وامامنا مشهد طبيعي من أجمل ما في الكون والأشد إثارة للحميّة والحماس.

موسيقى

٢٥ آب ١٩٤٨

ليست موسيقى الشرق موسيقى الصباح وشروق الشمس الساطع؛ إنها موسيقى الظلمة والليل. هي تناجي الليل وتغنّي الحبّ الاباحيّ، لأن غراميّات النهار ليست غراميّات الليل. وبين انتصار غناء ابتهاج وانشودة ليليّة من الشرق يرتسم كل الطريق الذاهب من الحياة المضطرمة إلى مضنيات الحبّ وأشجانه.

موسيقى الشرق يوحيها، بخاصّة، ضوء القمر وتوهّج الحبّ؛ وصرخاتها انما هي صرخات الشهوة، وايقاعها ايقاع اللذّة والمسافات الشاسعة القفراء. فهي إذن ليست موسيقى الإنسانيّة المناضلة؛ ولا هي موسيقى المعارك. وحين كان يجب اسماع العرب بعض الأناشيد الحربيّة كان لا بدّ من استعارتها من الغرب، ذلك أن الحياة، من القاهرة إلى بغداد، وفي قلب الجزيرة العربيّة، لا تتفتّح ما بعد الساعات الحارّة التي تتطلب النوم. وهذا من طبيعة الأشياء.

لكي يسير الشرق في ركاب العالم المتحرّك، لا بدّ له من أن يجدّد غنائيته والحانه. لا بدّ له من أن يُحلّ محلّ مفاتن المساء تلك التي تدعو إلى عمل العقل والأذرع. ان عليه أن يُناشد اهواء أخرى غير تلك التي تولي العاطفة الجامحة المقام الأوّل الذي لها بين الحياة والموت.

في الواقع إن الشرق كله يبدو كأنه مسحور بأغانيه (يا ليل؛ يا ليل ...)

بيد أن هذه الموسيقى التي تقارب ما يصدر عن القيثارات البعيدة تنبثق من روحه ذاتها، وتأبى إلاّ أن تخضع لمناخه، إلى البرد أو القيظ، والغيوم والخضرة. ما أشدّ التأثير الذي يحدثه في الإنسان نسيم لطيف أو ريح عاصفة، أو على العكس، قيظ طويل الأمد لا يتحرّك؟

إن شاء الشرق أن يحتلّ مكاناً في حياة العالم (ولا مندوحة له عن ذلك)، إن شاء أن يصمد بوجه العدوان الإسرائيلي أو أي عدوان آخر فلا بدّ له من أن يزيد شيئاً على موسيقاه وأغانيه، من أن يعمل عمل اليهود الذين، بواسطة موسيقيّهم الكُثر، تملكوا، إلى حدّ بعيد، هرمونيّة الكون.

في الريف

٧ أيلول ١٩٤٨

من خلال الصنوبر، قليلٌ من الذهب العتيق يتذوّب في البحر، وحوالى الليل يتقدّم الغسق بخطى سريعة. وفي الحديقة المزهرة نرى، من على دكّة فوق الطريق، المارّة يحثّون الخُطى.

جاء الظلام وقد سبق أولى النجوم وما ارتسم الآن في السماء إلاّ هلال دقيق في أوّل ليلة قمريّة.

كل سلام العالم يواكب آخر السطور من كتاب برغسون. فرائعة هذا الفيلسوف «التطوّر الخلاّق» نواصل قراءتها مساء كما في ليال لا يحصى عددها. انها الساعة التي يتقارب فيها الإنسان والحيوان والنبات في مجموعة الكائنات الحيّة، وهي مظاهر مختلفة وعجيبة للحياة... وتبحث الذاكرة، عند أبعد الأسلاف، عن أثر لما كان: كما يبحثُ العقلُ جهة المستقبل، ممّا سيكون. لكن المشهد بكامله والتأمل يعودان إلى الإنسان فنحوه يتجّه كل شيء ويلتقي منذ فجر الزمان، ويصبو إلى حياة الروح وينتظر مصيره.

نفكّر بالتكوين، بأعمال الله الذي لا تحصى أيامّها، بتعاقب الحركات والأشكال، بمغامرة الأرض العجيبة التي ما انفكّت منذ ملياري سنة تقريباً تجدّد وجهها وتنتقل من حالة إلى حالة، تتردّد، تسير، تتقدّم وهي تعرض بلا انقطاع وجوهاً غير مرتقبة على وهج الشمس.

ونتساءل ماذا ينتظر الإنسان لكي يستعلم أكثر بقليل عن أمور عديدة جداً تتعلق به، لكي يطبق احياناً مفهومه الروحيّ على هذا الماضي وعلى هذا المستقبل وهما تاريخه الطويل وأفقه الذي لا يُحدّ.

لمّا استراح الله في اليوم السابع فذلك لأن الادراك والحريّة ولدتا وكان من المناسب أن ينعما بجوّ حرّ في سبيل تحوّل مهيب. وما انفك الربّ الأزليّ منذ استراح يشهد ارتفاع الإنسان.

ولئن آلمنا أن نرى الإنسان يهبط بدلَ أنّ يرتفع فلا بدّ أن نقول في سرّنا إن وراء بؤس هذا الزمن ثمّة صعوداً يتهيّأ. إنها أزمة من أزمات الحياة تظهر كأزمة الماويات التي يصحّح فيضها بتقليم الأشجار التي تسخو بثمارها.

إن منظراً طبيعيّاً بهيّاً عند المساء يحمل الروح نحو هذا **الواقع** الذي نهرب منه لأن الفوضى اليوم جعلت الإنسان الراشد حكمة أقلّ ممّا جعلت للطفل.

وضع فرنسة

١٠ أيلول ١٩٤٨

قد يكون الكلام الذي توجهه إلى شعب فرنسة حكومةٌ فرنسيّة مُصمّمة على أن تحكم، على النحو التالي: «ايها الفرنسيّون سنعمل على إغنائكم وليس على إكمال خرابكم وخراب الدولة، بحجّة جَعلكم متساوين جميعاً. وليست المساواة في البؤس هي ما خطتّه الثورة على واجهة مبانينا العامّة».

ذلك إن فرنسة كلّما خفضّت عملتها، منذ خمس وعشرين سنة، وقيمتها المنقولة وغير المنقولة، نالت من بنْيَتها الاجتماعيّة ومن تراث الفرنسيّين في آن معاً، بحيث إذا استمرت هذه الطريقة لن يبقى للمواطنين الخاضعين لهذه القوانين إلاّ الشرف.

هي إفلاسات الدولة المتتالية التي حطّت بقسم من السكّان الجديرين بالاهتمام إلى وضع لا يحسدون عليه: إن خفض العملة والقيم هو في الواقع عقاب وأكذوبة على الدوام.

لا يساوي فرنك اليوم إلاّ جزئين من مئة من قمّة فرنك جرمينال[1]. فهل مَن يفكّر حقّاً بالمضيّ بالأوَهام إلى أبعد. أوَليس من الأفضل أن يُعاد إلى الفرنسيّين (لأن النُظم التي يرتضيها الإنكليز تنفرّهم) روح المبادرة وقليل من هذه الحريّة التي ما عادت بالنسبة إليهم إلاّ حريّة تحدّي القوانين؟

١. أنشئ الفرنك الفرنسي في ١٧ جرمينال (نيسان ١٨٠٣).

إن فرنسة التي هبتها الطبيعةُ البحبوحة، فرنسة الاختراع والفنون والأنهر المستقرّة، والاراضي المحروثة والمراعي، إلى أين سيمضي بها المنظّرون الوهميّون إذا تُركوا على هذيانهم.

ها البلد الأجمل والأكثر توازناً في أوروبة يكاد يُصبح غير قابل للحكم وينهشه الحقد والحسد. «حين كان الفرنسيّون لا يتحابّون» هكذا كتب شارل موراس، فهل سيعودون من جديد إلى التحابّ؟

من المؤسف حقّاً أن يضيع هذا التناغم العظيم بفعل النزعة الفرديّة المتطرفّة. ان فرنسة هي ضحيّة قوانينها والذين ينتهكون هذه القوانين. فشعبٌ يتميّز بمزاجيته الشخصيّة لا يُعقل، حبّاً بالنظريّة، أن يُخضع للقيود الباطلة التي يخضع لها.

حان الوقت لفرنسة لكي تُحسن اختيار رؤساء لها...

فوق الجبل

١٧ أيلول ١٩٤٨

لنحتَفظْ بهذا الصمت في شعاع شمس تميل إلى غروب، كأنه ملامسة تَحبّب، وبين يدينا كتاب يطوّل الوقت ويولّد غبطة إذ القراءة عذبة عميقة.

لا أثر لضجّة في المدى الفسيح الزاهي بألوان تلطّف حدّتها أحياناً غيوم أيلول، ولا صوت على الجبل ولا في الوادي حيث يذرُّ الخريف قرنه ويتكوّم الضباب.

لا حركة في الأشجار ولا في البستان الهادئ، ولا في البعيد على البحر حيث الشمس تغطس متمهّلة أكثر من أي مساء آخر.

ثمّة ساعات مميّزة نستطيع خلالها أن نطوّل الوقت رغم رؤية المستقبل الشفّافة، حيث في الأفق البعيد نستطيع أن نوقف الشمس كيشوع بن نون، ونحقق المعجزة أحياناً لو عمدنا إلى قدرتنا فَنمتلك إرادة العيش. لكننا نستسلم ولا نحاول جهداً ولا ننعم بمراقبة مسيرة الساعات وبالاتصال بالآلهة.

صحيح ان الزمان ينقضي سريعاً لكثرة ما نحمّله من أحداث وأفكار، لأن تعاقب السنين علينا الذي يغني ذاتنا يجعله يتعجل المضيّ. لذا نستبق المستقبل ونحن نكثر من استعادة الذكريات. لكننا نعلم بالاختبار اننا ما زلنا نقوى أن نمدّد الوقت كما كان يتفّق لنا، أيّام طفولتنا، بصورة رائعة، لو دافعنا عنه بتعميق الحاضر ضدّ تعديّات الماضي والمستقبل.

ثمّة حلاوة بالغة في التنعّم بالصمت، طوال مساء، أمام منظر طبيعي فسيح المدى. بعد هذا، يمكننا أن نعود بنفس سليمة إلى حومة الجماهير وإلى الصخب ونحن على يقين بأنه لا يتوقّف إلاّ علينا تجاهل هذه الضوضاء وهذه الأهواء الجامحة، وهذه النيّات السيّئة وهذا الشغف المُعمّم بالثمرة المحرّمة الذي يُفسّر كلّ الحماقات.

صوَر

٢٨ أيلول ١٩٤٨

كالنبتة المُرسّخة في الأرض يرتبطُ الإنسان بنفسه. ويحيا منها بما فيه من العنصر الإلهيّ. هو يبدو متحرّكاً ووحيداً بوجه الريح، كما الشراع فوق البحر، لكنّه يصنع له جذوراً لامنظورة. هو يملك فسحات في أماكن لا يراها، لأن العينين تابعتان للجسد، والنفس ترى شيئاً آخر. لها انظار مصوّبة على مرفأ أساسيّ بعيد. فالسفينة، وهي على وشك الاقلاع لا تقوى على التوقّف من دون أن ينخرها الملح ويثقلها الطحلب، هي كل واحد منّا.

بيد أننا نكافح أيضاً ضدّ الانحراف منذ أن انقطع الرباط الذي كان يُحيينا من تنفّس الأمومة ودمها. فقبل الصرخة الأولى وقبل رضاعة الحليب من الثدي، كنّا نشبه الثمرة المعلّقة بالشجرة، وحين ننفصل، بعد لحظة، نُشبه من ارتحلَ عن وطنه.

كلّ إنسان عالمٌ لوحده كالكوكب الذي يحمله، كالشمس التي تتعلّق بها الأرض، كالنظام الفلكيّ الذي تنتسب اليه. لكنّ معظم الناس يقلّصون هذا العالم حتى مستوى العدم. شأنهم شأن ثور الحراثة الذي يجترّ تبنه أو عشبه، يمشي، ويتطلع، ولا يفهم شيئاً ويواصل سيره.

أوّل شرط من شروط الحياة هو أن نكتشفها، أن نعرف أننا هذا الكائن الصامد، وقد حقّق توازناً والذي يُمسك، لو أراد، بمفتاح الأحلام

والمصير. لكنّنا سجناء تحركاتنا اليوميّة كالنملة في وكرها تحت الأرض. فبدلَ أن نُبحر نقوم بأعمال تافهة فارغة رتيبة هاربين، بلا انقطاع، من تلك العظمة السهلة المنال، التي نحملها في أعماقنا.

ما من إنسان قطّ يعجز، إذا أراد، أن يأتي بمعجزة ما. ما من إنسان يتعذّر انتشاله من بؤسه القاتم لكي يتنشّق الشمس. ولكن لا بدّ أن يقال لكلّ إنسان إنه ككنز في قاع الماء، كمخبأة ضُيِّع مكانُها السريّ.

خوف مشروع

٣٠ أيلول ١٩٤٨

«ليس المستقبل ما اتطلع اليه بل الحاضر بعينه الذي يحثّنا إله على فكّ رموزه». في كتابات كلوديل هذه العبارة العظيمة بين الكثير من امثالها. فيها هذه الكلمات الخاطفة، هذا اللهاث. ذلك اننا حين نحيا ينبغي أن نفهم، أن نعي زماننا وذواتنا. وهذا شأن عقلنا. شأنه أن يطوّق الاحداث والأشياء ويمسك بها لكي يستخرج منها جوهرها.

تبادر الينا هذا ونحن نصغي، أمس، إلى ما قال السيّد سباك في منظّمة الأمم المتّحدة وهو يردّ على السيّد ڤيشنسكي. للبلجيكيّين ذكاء بارد وطبع مُبرهن. يكرهون الغموض والإبهام، بينما الفكر السلافي، حتى حين يعبّر عنه ببرودة، وحتى حين يعبّر عنه بكلمات عنيفة، هو دائما فكر رجراج، لا يُدرك.

قال السيّد سباك إلى السيّد ڤيشنكي بما معناه: «أوروبة الغربيّة تخافكم، تخاف حكومتكم، تخاف سياستكم. هي خائفة». وهذا الخوف المشروع ما يثير الشكّ والحذر، لأن وسائل الاتّحاد السوڤياتي العاديّة هي غالباً وسائل عنيفة. والتقنيّة السياسيّة لدى الاتّحاد السوڤياتي قَلّما تأخذ بعين الاعتبار الإنسان كفرد وقلّما تأخذ بعين الاعتبار الحق الطبيعيّ والحريّات!

وقال السيّد سباك أيضاً: ان الطابور الخامس السوڤياتي منتشر في كل مكان وهو يعمل بوسائل أشد هولاً من وسائل النازيّة. والشعوب تدافع

عن نفسها حياله ولها انطباع أنها تسير على أرض ملغومة. بعد «المساء العظيم» للعدميّة، تبدو في الآفاق ملذّات سيبيريا، يبدو الغاء الشخصيّة والإرادة وذوبان ملايين البشر في بوتقة التستّر الجماعيّة، فإذا الإنسان قد اصبح بطاقة هويّة، رقماً في جدول كما في سجون الأشغال الشاقّة. ومن الطبيعي أن تخاف أوروبة الغربيّة من كل هذا، هي وغيرها حتماً. فبدل أن يغذّي الاتّحاد السوڤياتي هذه الريبة التي اصبحت طبيعيّة يجدر به أن يعرب للعالم عمّا يولّد التهدئة.

إن الحاضر الذي ينبغي فكّ رموزه (حسب اقتراح كلوديل، إنما هو في تلك الحقيقة العميقة التي يخفيها الكلام وتُخبّئُها الدعاوات.

أوروبة الغربيّة خائفة. وهي في أكثريتها الساحقة لا تريد بأي ثمن أن تفرض عليها أوروبة الشرقيّة طريقة تفكيرها وحياتها. بهذا هي تفكّر، وهذا الخطر هو ما ترقبه. وبوجه هذا التهديد تنظّم أوضاعها وتذود عن نفسها.

تذكار الموتى

٢ تشرين الثاني ١٩٤٨

هذا اليوم هو من الأيّام التي يأتي الماضي فيها إلينا، وتبرزُ وجوهٌ ممحوّة وتعودُ إلى الحياة، والأحياء والأموات يتحادثون بعد صمت طويل.

بعد أن عيّدت الكنيسة للقدّيسين تذكّرت الموتى.

مئة وخمسون ألفاً أو مئتا ألف من الناس يموتون كلّ يوم. وفي عهد أغسطس قيصر، حوالى عهد الميلاد، ما تجاوز عدد الموتى عشر هذا الرقم. فبالرغم من الأمراض والكوارث والحروب ازداد عدد البشر ازدياداً عجيباً، ومصير البشريّة هو، رغم الظواهر، إلى ازدياد أوفر.

لكنّ ما ننساه، ولا يقع تحت الحسّ رغم تعدّد حقول الراحة الأبديّة واتساعها، هو عدد الموتى الذي يفوق كثيراً عدد الأحياء. فمقابل مليارين من البشر كم هم الذين قضوا نحبهم؟ كم هم الذين لفظوا أنفاسهم الأخيرة وهم لا يعرفون مستقبلاً غير مستقبل الرماد، وكم منهم ماتوا ميتة صالحة؟

إن إنساناً يمحو ذكرَ الموتى من حياته ليس بإنسان. فكأنّه بلا أسلاف أو كأنّه وُلد من حجارة الطريق.

في أحشاء كلّ واحد منّا ملايين السنين. فالحياة الأولى التي انبثقنا عنها لها عمر النجوم، وضمير المجد القديم الأوّل ترك بصمته أو أثره فينا. وكلّ كائن حيّ هو حلقة من السلسلة، وكلّنا فرديّاً ننتسب إلى الخفقان الجماعيّ.

ان يوم تذكار الموتى هو يوم احتفال بإمكان رجوع الأفضال وما يوهب

منها، هو يوم الذكرى والصلاة. فكما يتّفق لنا أن نحس، في الساعات البطيئة، بنَفَس ميت عزيز علينا يمر فوق اكتافنا، كذلك الذين قضوا ينتظرون دعوتنا وشفاعتنا. ينتظرون حضورنا وأزهارنا والأوراق التي تحوطها شهادة ودلالة على القيامة والخلود.

إن الموت والحياة يتكاملان. هما كالنهار والليل طالما الشمس تدور، وبعد الخريف والشتاء يُولد الربيع من جديد.

موت الساموراي

٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٨

سواء أكان الجنرال توجو مُذنباً أم لا (وهو مذنب كما يقولون لنا) فليس ثمّة ما يمنعنا من الاعجاب بحديث السيّدة توجو إلى الصحفيّين الذين استجوبوا بقساوة هذه المرأة التي تألّمت طوال ثلاث سنوات من زوجها وبسببه. قالت: «مات زوجي روحيّاً يوم هزيمة اليابان. أمّا اليوم فموته ليس إلاّ مسألة موت جديّ. وإني على يقين بأنّه تمنى أن يُحكم عليه بالاعدام. ولعلّ كل ما يتمنّاه هو يتمنّاه كلّ افراد عائلته. وعلى كل حال لا يموت الإنسان إلاّ مرّة واحدة...» أية رومانيّة كان كلامها أفضل من هذا الكلام؟ فقد تدور الأرض بالورب وقد يسير كل شيء باتّجاه معاكس، ولكن سيظلّ دائماً في العالم بشرٌ حسّاسون يجعلون البسالة فوق بؤسنا وجدل الكلام، ككلام السيّدة توجو وفوق كل ما يُكتب من كتابات مُصطنعة ومزيّفة. لقد عبّرت هذه اليابانيّة الجريحة ببضع كلمات عن كلّ أعماق الحبّ وصُوَره.

جاء تصريح السيّدة توجو، الجدير بأسمى التصاريح، كخبر عابر في البرقيّات. وقد عثرنا عليه بأحرف صغيرة في صفحة جريدة بين أتفه الأخبار وبقرب إعلانات كهذا الإعلان: «على كلّ امرأة أن تعرف كيف تُعنى بجمالها». أجل ولكن هذا الجمال المعنويّ الذي أبرزته هذه الزوجة اليابانيّة كان ينبغي أن يكون له حظّه من البروز بعيداً عمّا حوله من أمور باطلة.

بفضل هذا الصفاء الروحيّ وسموّ هذه التعزية سيموتُ الجنرال توجو بسلام وسيتغلّب حتى على أسفه لأنّه ساهم بما يدعوه رينه غروسه، بحقّ، «انتحار اليابان»، هذه اليابان التي هي على خلاف مع الصين والولايات المتّحدة وإنكلترة في آن معاً.

ولكن من يُلقم بعد بحجر بلدان، تكتظ بالسكان، هي قرب مساحات شاسعة فارغة، تناضل في سبيل الخبز اليوميّ والهواء الطلق في نطاق ضيّق قاحل؟

بالنسبة للأمم كما بالنسبة، للناس ثمّة حالة ضرورة ملحّة لا يمكن تجاهلها.

على كلّ حال لقد توجهت السيّدة توجو بكلامها إلى شعبها. ولأجل شعبه سيموت توجو.

رجوع

١٩ كانون الأوّل ١٩٤٨

حين نعود إلى منزلنا بعد سفرة طويلة، نوعاً ما، نشعر كأننا نجمّع دفعة واحدة شتات أهواء قلبنا.

تطمئن الروح إلى الأماكن والوجوه الأليفة ويستقر الجسد، بعد تردّد طويل، في عاداته القديمة. لا شكّ أن المسافات ما عادت بذي بال إذ بضع ساعات من الطيران ليلاً، ونحن نيام، تعود بنا من العواصم النائية. لكنّ ابتعادنا عن ديارنا مسافة ألفي ميل ونحن نرى مرتفعات بلادنا والشواطئ تتوارى وراءنا ما زال يصدمنا.

في السفر الذي نقوم به فعلاً نبلغ سرعة الأسفار في الحلم. لكنّ الإنسان يظل كما هو. ينسلخ عن جذوره كشجرة تُنقل فوراً مع كلّ أغصانها وأوراقها.

هكذا تتسّع اقدارنا على قياس العالم فالوقت المكتسب إن أُخذ من الأحلام الطويلة خلال السفر بعربات الأمس وببواخر سرعتها اثنتا عشرة عقدة على متن البحار الهادئة، هذا الوقت يُصرف في نشاط محموم. إلاّ أن الإنسان في طيرانه لا يستطيع التوقّف حيثما شاء بل في المهابط الممكنة حيث يتسنى للطائر الآليّ أن يهبط ويستريح ويشرب.

اننا نشغف أكثر من اي شخص آخر بالأسفار وبالتعرّف إلى العالم، لكننا نتذوق أيضاً حلاوة الاستراحات والعودات ونمارس الحكمة التي

جعلت من المنزل الذي نسكن فيه هو البيت الوحيد الذي يمكننا أن ننتظر فيه «نهاية الرحلة» من دون أن تُثخننا الجراح وننسلخ عمّا نُحبّ.

«ما أسعد مَن قام كـ 'أوليس' بسفرة جميلة!».